

الجامعة الأزهرية

كلية أصول الدين

منهج الفرقان في علوم القرآن

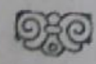
﴿ القسم الأول ﴾

﴿ للسنة الأولى بتخصص الدعوة والأرشاد ﴾

(تأليف حضرة صاحب الفضيلة الشيخ)

محمد على سلامة

١٩٣٧ - ١٩٣٨



مطبعة [illegible]

الجامعة الازهرية

كلية أصول الدين

منهج الفرقان

فى

علوم القرآن

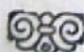
﴿ القسم الأول ﴾

﴿ للسنة الأولى بتخصص الدعوة والأرشاد ﴾

(تأليف حضرة صاحب الفضيلة الشيخ)

محمد على سلامة

١٩٣٧ - ١٩٣٨



مطبعة شبرا بجوار جامع الخازندار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل القرآن هدى للمتقين وأودع فيه من الأحكام والأخلاق مافيه السعادة للناس أجمعين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله الذى كان خلقه القرآن وعلى آله وصحبه من تبعهم باحسان « أما بعد » فان المشيخة الجليلة لكلية أصول الدين قدعهدت إلى بتدريس علوم القرآن لطلبه التخصص بقسم أجازة الدعوة والارشاد وقد سبق أن وضعت القسم الثانى من كتاب منهج الفرقان فى علوم القرآن وقد طلب منى الطلبة أن أضع لهم مؤلفا فى القسم الأول من علوم القرآن على نمط الكتابة فى القسم الثاني مع استيفاء المباحث التى اقتضاها المنهج فشرعت ورائدى حسن التوكل على الله الذى عليه المعول وقد سميته « القسم الأول من كتاب منهج الفرقان فى علوم القرآن » والله أسأله أن يجعله خالصا لوجهه وأن ينفع به كما نفع بأصوله انه سميع مجيب وجملت مراجعى فى ذلك (١) الاتقان فى علوم القرآن (٢) مذكرة الاستاذ الشيخ محمود أبى دقيقه (٣) البرهان للزركشى (٤) مقدمات تفاسير ابن جرير الطبرى والألوسى والقرطبى (٥) رسائل لبعض حضرات المحققين (٦) كتب علم الأصول (٧) كتب علم الكلام وغير ذلك مما يرشدني الله للاطلاع عليه من مؤلفات ويلهمنى إياه من حسن الفهم والتوفيق وقد رتبته على مقدمة وبحوث وخاتمة .

المقدمة في معنى علوم القرآن

﴿ وتاريخ ظهور هذا الاصطلاح ﴾

« علوم القرآن » هذا مركب إضافي ينبغي معرفة كل من جزئيه بحسب الأصل ثم المراد به بعد التركيب فنقول « لفظ » القرآن بحسب الأصل اختلف فيه من جهة الاشتقاق وعدمه والهمز والتخفيف والمصدرية والوصفية على أقوال وبيانها ما يأتي :

« أولها » ماذهب إليه الشافعي أن لفظ القرآن المعرف بأل ليس مهموزا ولا مشتقا بل وضع علما على الكلام المنزل على النبي المرسل صلى الله عليه وسلم

« ثانيها » ما نقل عن الاشعري وأقوام أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه ثم جعل علما على اللفظ المنزل الخ . وسمى بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض .

« ثالثها » ذهب الفراء إلى أنه مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا ويشبه بعضها بعضا وجعل علما على اللفظ المنزل لذلك وهو على هذين غير مهموز أيضا كالذى قبلهما ونونه أصلية

(رابعا) قال الزجاج هو وصف على فعلان مهموز مشتق من القرء بمعنى الجمع ومنه قرأت الماء في الحوض إذا جمعته وسمى الكلام المنزل على النبي المرسل به لأنه جمع السور أوجمع ثمرات الكتب السابقة

(خامسا) ما ذهب إليه اللحياني وجماعة من أنه مصدر مهموز

بوزن الغفران سمى به المقروء تسمية المفعول بالمصدر والحق من هذه الأقوال ما ذهب إليـــه الزجاج واللحيانى من أنه مهموز وصف أو مصدر وأما ترك الهمز فيه فى بعض القراءات فهو من باب التخفيف ونقل حركتها إلى ما قبلها وهو كثير شائع ثم نقل من المصدرية أو الوصفية وجعل علما شخصيا كما ذهب إليه محققو الأصوليين ويطلق القرآن على القراءة ومنه قوله تعالى (إن علينا جمعه وقرآنه) وقوله (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه)

«اسماء القرآن»

اعلم أن الله تعالى كما جعل كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مخالفا لكلام العرب فى اسلوبه ونظمه وكمال بلاغته وفصاحته جعل اشهر اسمائه مخالفا لما سمت العرب به كلامها فقد سمت العرب جملة كلامها ديوانا وسمى الله جملة كلامه قرآنا وسمت العرب بعض الديوان قصيدة وسمى الله بعض القرآن سورة وسمت العرب بعض القصيدة بيتا وسمى الله بعض السورة آية وسمت العرب آخر البيت قافية وسمى الله آخر الآية فاصلة، وقد قال فى البرهان اعلم ان الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسما سماه كتابا ومبينا فى قوله «حم والكتاب المبين» وقرآنا وكريما فى قوله «إنه لقرآن كريم» وكلاما «حتى يسمع كلام الله» ونورا «وأنزلنا إليكم نورا مبينا» وهدى ورحمة «هدى ورحمة للمؤمنين» وفرقانا «نزل الفرقان على عبده» وشفاء «وننزل من القرآن ما هو شفاء» وموعظة «قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور» وذكرا ومباركا «وهذا ذكر مبارك أنزلناه» وعليا «وانه فى أم الكتاب

لدينا لعلى حكيم» وحكمة « حكمة بالغة» وحكيما «تلك آيات الكتاب الحكيم » ومهيمنا « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » وحبلا « واعتصموا بحبل الله جميعا » وصراطا مستقيما « وأن هـذا صراطي مستقيما» وقيما «قيما لينذر» وقولا وفصلا «إنه لقول فصل» ونبأ عظيما « عم يتساءلون عن النبأ العظيم» وأحسن الحديث ومثاني ومتشابها « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى » وتنزيلا « وإنه لتنزيل رب العالمين » وروحا « أوحينا إليك روحا من أمرنا» ووحيا «إنما انذركم بالوحى » وعربيا « قرآنا عربيا » وبصائر « هـذا بصائر » وبيانا « هـــذا بيان للناس » وعلما « من بعد ما جاءك من العلم»وحقا«إن هذا لهو القصص الحق» وهاديا «إنهذا القرآن يهدى» وعجبا «قرآنا عجبا» وتذكرة «وإنه لتذكرة» والعروة الوثـــقى «استمسك بالعروة الوثقى» وصدقا «والذى جاء بالصدق»وعدلا وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، وأمراً «ذلك أمر الله أنزله إليكم» ومناديا « ينادى للايمان» وبشرى «هدى وبشرى» ومجيداً «بل هو قرآن مجيد» وزبورا «ولقد كتبنا فى الزبور»وبشيراً ونذيرا «كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشـيراً ونذيراً» وعزيزا «وإنه لكتاب عزيز» وبلاغا«هذا بلاغ للناس» وقصصا «أحسن القصص »وتسماه أربعة أسماء فى آية واحدة «فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة» نقله فى الاتقان وبعد ذلك وجه تسميته ببعض هذه الأسماء مثل وجه تسميته «بالمتشابه» لأنه يشبه بعضه بعضا فى الحسن «وبالعزيز» لأنه يعز على

من يروم معارضته «وبالفرقان» لأنه فرق بين الحق والباطل «وبالحكيم» لأنه أحكمت آياته بعجيب النظم وبديع المعانى وأحكمت عن تطرق التبديل والتغيير والتحريف والاختلاف والتباين «وبالنور» لأنه يدرك به غوامض الحلال والحرام «وبالشفاء» لأنه يشفى من الأمراض القلبية كالكفر والجهل والغل والحقد والحسد ومن الأمراض البدنية أيضا «وبالذكر» لما فيه من المواعظ وأخبار الأمم الماضية والذكر أيضا الشرف قال الله تعالى «وانه لذكر لك ولقومك» أى شرف لهم لأنه نزل بلغتهم «وبالمهيمن» لأنه شاهد على جميع الكتب والأمم السابقة «وبالروح» لأنه تحيا به القلوب والأنفس «وبالبلاغ» لأنه أبلغ الناس ما أمروا به ونهوا عنه أو لأن فيه بلاغة وكفاية عن غيره اه

أو ملخصا والذى اشتهر من هذه الأسماء كلها ثلاثة: القرآن والفرقان والكتاب وأشهرها «القرآن» وقد علمت أنه نقل من المصدرية أو الوصفية على ما تقدم إلى كونه علما شخصيا على الكلام المنزل على محمد ﷺ المبدوء بسورة الحمد وآخره سورة الناس عند علماء الأصول والفقهاء والعربية المحتجين بأبعاضه وأجزائه «وعلميته» اما باعتبار تشخصه بأول محل وجد فيه ولا عبرة بتعدده بتعدد المحال الطارىء بعد ذلك فهو واحد أينما حل

«وأما باعتبار وضعه للمؤلف المخصوص الذى لا يختلف باختلاف المتلفظين به للقطع بأن ما يقرأه كل واحد منا هو القرآن المنزل على محمد ﷺ بلسان جبريل عليه السلام.

«وقيل أنه علم جنس» نظراً لتعدده بتعدد المحال «وقيل هو موضوع للقدر المشترك» بين المجموع وبين أجزائه فسماه كلى كالمشترك المعنوى «وقيل هو مشترك لفظى بين المجموع وبين أجزائه فيكون موضوعا لكل منهما بوضع ووجه هذين القولين أن القرآن عند من ذكرنا من العلماء يبحث فيه من حيث انه دليل على الحكم وذلك يكون بآياته لا بمجموع القرآن والحق أنه علم شخصى مشترك لفظى يطلق على المجموع وعلى الأجزاء وهذا هو الذى يفيده كلام الفقهاء فى قولهم: يحرم قراءة القرآن للجنب أومس القرآن ونحـــو ذلك فان غرضهم بذلك المجموع أو الابعاض

تعريف القرآن عند الأصوليين والفقهاء وأهل العربية

قد علمت أن لفظ القرآن علم شخصى على اللفظ المنزل المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس وعلى أبعاض ذلك والعلم الشخصى لا يحد مسماه لأن تشخصه يغنى عن حده إذ لا يقع معه فيه اشتباه ولكن الأصوليين ومن معهم حدوه لضبط أجزائه وتميزه عما لا يسمى باسمه من الكلام كالتوراة والأنجيل والأحاديث القدسية وما نسخت تلاوته مما هو كلام الله وليس قرآنا

ويمكن أن يقال ان الشخص يمكن أن يحد بما يفيد امتيازه عن جميع ما عداه بحسب الوجود لا بما يفيد تعينه وتشخصه بحيث لا يمكن اشتراكه بين كثيرين بحسب العقل فان ذلك انما يحصل بالاشارة الحسية لا غير والما أرادوا تحديده نظروا فى الصفات المشتركة بين الكل

والأجزاء المختصة بها ككونه معجزا منزلا على الرسول ﷺ منقولا بالتواتر مكتوبا فى المصاحف فاعتبر بعضهم فى تفسيره جميع الصفات لزيادة الايضاح واعتبر بعضهم الانزال والاعجاز لأن الكتبة والنقل ليسا من اللوازم لتحقيق القرآن بدونهما فى زمن النبى ﷺ واعتبر بعضهم الإنزال والكتبة والنقل لأن المقصود تعريف القرآن لمن لم يشاهد الوحى ولم يدرك زمن النبوة وهم انما يعرفونه بالنقل تواترا والكتابة فى المصاحف وهما من أبين اللوازم وأوضحها دلالة على المقصود بخلاف الاعجاز فانه ليس من اللوازم البينة لأنه لايعرفه الا الخواص ولا الشاملة لكل جزء اذ المعجز هو أقصر سورة أو مقدارهـــا و بعضهم اعتبر الاعجاز وحده نظرا إلى أنه الآية المصدقة للرسول المثبتة لرسالته ﷺ وإلى أنه الوصف الذاتي للقرآن وان كان لا يقع بجميع أبعاضه بل بأقصر سورة منه أو بمقدارها

والذى يناسب غرض الأصوليين والفقهاء من ذلك هـــو اللفظ المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المنقول عنه تواترا المتعبد بتلاوته لأن غرضهم الاستدلال على الأحكام وهو يكون باللفظ مركبا أو مفردا

فخرج بالمنزل على محمد ﷺ المنزل على غيره كالانجيل والتـــوراة وخرج بالمنقول إلينا تواترا غير المتواتر سواء كان مشهورا مثل «فصيام ثلاثة أيام متتابعات» أو لم ينقل أصلا مثل المنسوخ تلاوته فان هذا لايسمى قرآنا وخرج بالمتعبد بتلاوته الأحاديث القدسية فانها لايتعبد بتلاوتها فلا يسمى قرآنا وإن كانت متواترة

وأما الأحاديث النبوية فهي خارجة عن التعريف لأن ألفاظها ليست منزلة وإن كان معناها منزلا وعلماء العربية يزيدون الاعجاز أو التحدى لأنهم يبحثون عن بلاغته وفصاحته ومثلهم علماء الكلام في أحد اطلاقيه عندهم

﴿ تعريف القرآن عند علماء الكلام ﴾

علماء الكلام تارة يبحثون عن القرآن من حيث أنه كلام الله وهو صفة من صفاته

وتارة يبحثون عنه من حيث إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ

فعرفوه من الجهة الأولى بأنه الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى المتعلقة بالكلمات الغيبية الأزلية من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس والكلمات الغيبية هي ألفاظ حكميه مجردة عن المواد مطلقا حسية كانت أو خيالية أو روحانية وتلك الكلمات أزلية مترتبة من غير تعاقب في الوضع العلمي الغيبي وكونها مترتبة غير متعاقبة ظاهر فان ذلك كما يقع البصر على صفحة مكتوبة دفعة واحدة فانه لا تعاقب في رؤيتها وإن كانت مترتبة في ذاتها وكما يقع انطباع صورة في المرآة فانها وان كانت مترتبة الأجزاء الا أنه لا تعاقب بين أجزائها في الانطباع ولله المثل الأعلى فجميع معلومات الله مكشوفة له أزلا كما هي مكشوفة له فيما لا يزال وهذه الكلمات الغيبية التي لا تعاقب بينها أزلا يقدر بينها التعاقب فيما لا يزال أي عند إظهار صورها في المواد الروحانية والخيالية والحسية من الألفاظ المسموعة والذهنية والمكتوبة

وعرفوه أيضا بالكلمات الغيبية المذكورة في متعلق الصفة القديمة

وأما من الجهة الثانية فقد عرفوه كما عرفه أهل العربيه بأنه اللفظ المنزل على سيدنا محمد ﷺ للاعجاز الخ

فالقرآن عندهم يطلق بالاشتراك اللفظى على الصفة القديمة ومتعلقها وعلى اللفظ المذكور

فهو مشترك بين الكلام النفسى والكلام اللفظى ويطلق على كل منهما حقيقة عرفية

هذا ما يتعلق بلفظ القرآن لغة واصطلاحا

وأما لفظ علوم فهو جمع علم والمراد به المسائل أو إدراكها وإذ قد عرفت هذا المركب الاضافى بحسب الأصل قبل التركيب فلنبين معناه بعد التركيب وجعله علما على الابحاث المخصوصة .

معنى علوم القرآن

أنواع من المسائل يبحث فيها عن أحوال القرآن الكريم من حيث نزوله وكيفية النطق به وأدائه وكتابته وجمعه وترتيبه فى المصاحف وبيان ألفاظه وما يتعلق بكل من معانيه وألفاظه من الأحكام وقد شمل ذلك علوم التفسير والقراءات والرسم وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمتشابه والأعجاز والمجاز وغير ذلك مما له تعلق بالقرآن الكريم من المسائل والمباحث .

﴿ تاريخ ظهور هذا الاصطلاح ﴾

نزل القرآن الكريم بلغة العرب وعلى أساليبهم وكلهم كانوا يفهمونه ويعلمون معانيه أفرادا وتركيبا وناسخا ومنسوخا وأسباب نزول

الآيات كما عرفوا ألفاظه وكيفية النطق به وجمعه وترتيبه وكتابته ونقلت هذه الأبحاث بطريق الرواية عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وتداول ذلك التابعون ومن بعدهم ولم تزل رواية السلف عن الخلف هي المحور الذي تدور عليـــه الابحاث المتعلقة بالقرآن حتى صارت المعارف علوما ودونت الكتب في أنواع علوم القرآن

وقد كان كل نوع من هذه الأنواع علما مستقلا يكتب فيه العلماء كتبا فمن ذلك أسباب النزول لعلى بن المديني، والناسخ والمنسوخ لأحد علماء القرن الثالث الامام ابو عبيد القاسم بن سلام، ومجاز القـــرآن لابن عبد السلام، وإعجاز القرآن للخطابي، والرماني والباقلاني وغـــيرهم والناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس، وأمثال القرآن للمـــاوردي، وأقسام القرآن لابن القيم، وفي الرسم المقنع للداني، والبرهان في متشابه القرآن الكرماني، وغير ذلك مما يطول حصره من الكتب والأنواع التي ألفت فيها وقد كان بحثهم يدور حول استقصاء أجزاء القرآن التي اشتركت في جهة واحدة فمن يكتب في الناسخ والمنسوخ يستقصي آيات القرآن وسوره مبينا الناسخ والمنسوخ، ومن يكتب في مجـــاز القـرآن يتحرى ألفاظه المجازية مع بيان أنواع المجازات، ومن يكتب في أقسام القرآن يتعرض لذكر أنواع القسم في القرآن وذكر جزئياتها، ومن يكتب في أسباب النزول يذكر الروايات في أسباب نزول الآيات التي نزلت على أسباب خاصة، وهكذا كان الباحثون يكتبون في نوع أو أكثر مع استيعاب الجزئيات التي في القرآن المشتركة في جهـــة

واحدة من البحث كجهة النسخ أو أسباب النزول أو المجازية أو غير ذلك، كما انفردت كتب التفسير والمفردات بنواح أخـــر ولم تجمع الأنواع المتعلقة بالقرآن فى مؤلف خاص إلى أن جاء القرن السابع وفيه وضع ابن الجزرى كتابا سماه الافنان فى علوم القرآن، وفيه أيضا وضع أبو شامة كتابا سماه الوجيز فى علوم تتعلق بالقرآن العزيز، وكل من هذين الكتابين اشتمل على طائفة يسيرة ونبذ قصيرة بالنسبة لما وجد بعد ذلك من المؤلفات فى علوم القرآن وإن كان لهما الفضل فى وضع الأساس وابتداء الاصلاح لعلوم القرآن على مثال ما ألف فى علوم الحديث؛ وقد كان القرن الثامن الهجرى هو الذى ازدهر فيه التأليف فى علوم القرآن من جماعة من فحول العلماء وإن اختلفوا فى التـأليف قلة وكثرة فى ذكر الأنواع، وممن ألف فى هذا القرن :

١) الامام أبو عبد الله محيى الدين الكافيجى فقـد ألف كتابا فى علوم القرآن اشتمل على بابين أحدهما فى معنى التفسير والتأويل والسورة والآية، والثاني فى شروط القول بالرأى وأتمه بخاتمة اشتملت على آداب المعلم والمتعلم .

٢) قاضى القضاة جلال الدين البلقينى ألف كتابه مواقع العـلوم من مواقع النجوم قال فى خطبته: قد اشتهرت عن الامام الشافعى رضى الله عنه مخاطبة لبعض خلفاء بنى العباس فيها ذكر بعض أنواع القرآن يحصل منها القصد لنا الاقتباس وقد صنف فى علوم الحديث جماعة فى القديم والحديث وتلك الأنواع فى سنده دون متنه أو فى مسنديه وأهل فنه وأنواع

القرآن شاملة وعلومه كاملة فأردت أن أذكر فى هذا التصنيف ماوصل إلى علمى مما حواه القرآن الشريف من أنواع علمه المنيف وينحصر فى أمور «الأول» مواطن النزول وأوقاته ووقائعه وفى ذلك اثنا عشر نوعا المكى. المدني. السفرى. الحضرى. الليلى. النهارى. الصيفى الشتائى. الفراشى. أسباب النزول. أول ما نزل. آخر ما نزل

«الأمر الثانى» السند وهو ستة أنواع المتواتر. الآحاد. الشاذ. قراءات النبى صلى الله عليه وسلم. الرواة. الحفاظ

«الأمر الثالث» الأداء وهو ستة أنواع الوقف. الابتداء الامالة المد. تخفيف الهمزة. الادغام

«الأمر الرابع» الألفاظ. وهو سبعة أنواع الغريب. المعرب. المجاز. المشترك. المترادف. الاستعارة التشبيه

«الأمر الخامس» المعانى المتعلقة بالأحكام وهو أربعة عشر نوعا العام. الباقى على عمومه. العام المخصوص. العام الذى أريد به الخصوص. ما خص فيه الكتاب السنة. ماخصت فيه السنة الكتاب المجمل المبين. المؤول. المفهوم. المطلق. المقيد الناسخ. المنسوخ. نوع من الناسخ والمنسوخ وهو ما عمل به من الأحكام مدة معينة والعامل به واحد من المكلفين

«الأمر السادس» المعانى المتعلقة بالألفاظ وهو خمسة أنواع الفصل الوصل. الايجاز. الاطناب. القصر وبذلك تكملت الأنواع خمسين ومن الأنواع مالا يدخل تحت الحصر الأسماء الكنى الألقاب المبهمات اهـ من الاتقان للسيوطى.

٣) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي ألف كتابا سماه البرهان في علوم القرآن قال في خطبته: لما كانت علوم القرآن لا تحصى ومعانيه لا تستقصى وجبت العناية بالقدر الممكن ومما فات المتقدمين وضع يشتمل على أنواع علومه كما وضع الناس ذلك بالنسبة إلى علم الحديث فاستخرت الله تعالى وله الحمد إلى آخر ماقال ثم ذكر أنواعه التي بلغت سبعة وأربعين وقد أبدع فيه وأغرب وأتي بالعجب وفي القرن التاسع الهجري تحركت من الامام جلال الدين السيوطي همته العالية وقويت عزيمته الماضية على إبراز مؤلف في علوم القرآن ليحاكي بذلك من ألفوا في علوم الحديث وكان لم يطلع على ماتقدم من المؤلفات الجامعة وان كان قد اطلع على مؤلفات كثيرة في أنواع مفردة وفي أثناء ابتدائه التأليف اطلع عليها فقال في خطبه الاتقان بعد أن نقل خطبة البرهان للزركشي ولما وقفت على هذا الكتاب ازددت به سرورا وحمدت الله كثيرا وقوى العزم على إبراز ماأضمرته وشددت الحزم في إنشاء التصنيف الذي قصدته فوضعت هذا الكتاب العلي الشان الجلي البرهان إلى أن قال «وسميته الاتقان في علوم القرآن» ثم ذكر ما حواه من الأنواع فبلغت ثمانين نوعا»

فقد تدرج التأليف في علوم القرآن من تأليف مفردات إلى مجموعات إلى أن استوعبه الامام السيوطي ولو أعدنا النظر في المنهج المقرر الآن لوجدنا أنواعا كثيرة قد ضمت إلى علوم القرآن لم تكن من قبل كأبحاث ترجمة القرآن وذكر الشبه الواردة على القرآن وردها

وغير ذلك سنة الله التى جرت فى نشأة العلوم فانها تنشأ ضيقة الدائرة ثم تأخذ فى الاتساع شيئا فشيئا وبخاصة العلوم الخاصة بالقرآن الكريم فانها لا تقف عند حد ولا تصل العقول فيها إلى غاية نسأل الله تعالى أن يعلمنا من علوم كتابه مايقربنا إليه زلفى وننال به السعادة وكمال الهداية

هذا وأن المواضع المختارة للدراسة من المواضيع المهمة التى يدور عليها أبحاث المفسرين والأصوليين وعلماء الكلام والبلاغة استمدوها من القرآن الكريم ولنتكلم عليها مرتبة طبق المنهج المرسوم.

﴿ منهج التأليف فى علوم القرآن ﴾

قد علمت من ثنايا ماتقدم أن التأليف فى أنواع القرآن كان الغرض منه استيعاب الجزئيات المتناسبة فى موضوع واحد، مثال ذلك من يتكلم فى أسباب النزول كان تأليفه يدور على ذكر أسباب الآيات التى وردت على سبب ويتكلم على رواياتها، ومن يؤلف فى المكى والمدنى يذكر الآيات والسور المكية والمدنية، ومن يتكلم فى النسخ يستوعب القرآن كله لبيان مافيه نسخ وما ليس فيه نسخ وكذا فى مجاز القرآن وهكذا ولذلك كانت الابحاث مطولة

أما منهجنا فى هذا المؤلف فهو ذكر أحكام كلية للجزئيات المتناسبة وليس غرضنا استيعاب الجزئيات وإن اقتضى الحال ذكرها ذكرت بقدر الايضاح: مثال ذلك أننا نتكلم فى بيان المكى والمدنى على بيان المزايا التى اختص بها كل وذكر الشبه عليه وردها وفى أسباب النزول نتكلم على الأحكام التى تخص السبب وما نزل على سبب خاص أو عام وهكذا والله المستعان.

(١) نزول القرآن

النزول مصدر نزل ومعناه لغة الأيواء، ومنه نزل الأمير المدينة أى آوى اليها وقوله تعالى (وقل رب أنزلنى منزلا مباركا) ويطلق لغة أيضا على تحريك الشيء من علو إلى سفل ومنه (أنزل من السماء ماءا) وكلا المعنيين اللغوين لا يتحقق فى انزال القرآن لاستدعائهما المكانية والجسمية فيكون معنى مجازيا

فانزال القرآن بمعنى الكلام القائم بذات الله تعالى معناه اثبات الألفاظ الدالة عليه فى اللوح المحفوظ، وبمعنى اللفظ اثباته فى اللوح المحفوظ أو فى سماء الدنيا بعد اثباته فيه وهو معنى نزوله فى ليلة القدر ومعنى نزول القرآن على النبي ﷺ نزول حامله وهو الملك وهو حامل حروفه الملفوظة أو صورها المحفوظة أو المكتوبة من باب اطلاق اسم الحال على المحل وهو مجاز متعارف مثل قولك أرسلت هذا الكلام الى فلان بمعنى أرسلت من يحمله، وعلى هذا فالملك كان يتلقف القرآن من الله تعالى تلقفا روحانيا أو يحفظه من اللوح المحفوظ ثم ينزل به فيلقيه على الرسول صلى الله عليه وسلم وكيفية تلقيه صلى الله عليه وسلم عن جبريل بأحد طريقين (أحدهما) أن النبي صلى الله عليه وسلم انخلع من الصورة البشرية إلى الصورة الملكية وأخذه عن جبريل (الثانى) أن الملك انخلع من الصورة الملكية إلى الصورة البشرية فأخذه الرسول عنه والاول أشد والذى نزل به جبريل وألقاه على النبي صلى الله عليه وسلم هو اللفظ والمعنى معا ولا عبرة بزعم بعضهم أنه نزل بالمعنى ثم عبر عنه صلى الله عليه وسلم

بلغة العرب مستنداً إلى قوله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) فانه لا يشهد له لأن القلب كما ينزل عليه المعنى ينزل عليه اللفظ ومنه (إن علينا جمعه وقرآنه) أى جمعه فى قلبك وقراءته على لسانك وفضلا عن ذلك فان القائل يلزمه أمور مخالفة لصريح القرآن والسنة والأجماع منها أنه لا يكون لفظه معجزاً، ومنها أنه لا يكون متعبداً بتلاوته وغير ذلك، لذا كان هذا الزعم ساقطا عن الاعتبار : قال الجوينى كلام الله المنزل قسمان ـ قسم ـ قال الله لجبريل قل للنبى الذى أنت مرسل اليه إن الله يقول افعل كذا وكذا وأمر بكذا وكذا ففهم جبريل ماقاله ربه ثم نزل على ذلك النبى وقال له ما قاله ربه ولم تكن العبارة تلك العبارة كما يقول الملك لمن يثق به قل لفلان يقول لك الملك اجتهد فى الخدمة واجمع جندك للقتال فان قال الرسول يقول لك الملك لا تتهاون فى خدمتى ولا تترك الجند يتفرق وحثهم على المقاتلة لا ينسب إلى كذب ولا تقصير فى أداء الرسالة .

(وقسم آخر) قال الله لجبريل اقرأ على النبى هذا الكتاب، فنزل جبريل به من الله من غير تغيير كما يكتب الملك كتابا ويسلمه إلى أمين ويقول اقرأه على فلان فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفا اه.

فالقسم الثانى هو القرآن والقسم الأول هو السنة وقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن وقد تبين بما ذكر حكمة جواز رواية السنة بالمعنى للعارف الضابط، وعدم جواز رواية القرآن

بالمعنى وذلك لأن السنة أداها جبريل بالمعنى، وأما القرآن فانه أداه
باللفظ وقد كان ذلك من تيسير الله على الأمة حيث جعل المنزل اليهم
على قسمين: قسم يروونه بلفظه الموحى به، وقسم يروونه بالمعنى ولو جعل
كله مما يروى باللفظ لشق ذلك عليهم ولو جعل كله مما يروى بالمعنى
لم يؤمن فيه التبديل والتحريف ويؤيد ذلك (أولا) أن نزول القرآن
إذا ذكر فى القرآن مقيداً لم يقيد إلا بأنه من عند الله قال تعالى «حم
تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم» وقال تعالى «والذين آتيناهم
الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق» فهذا يدل على أن القرآن
منزل من عند الله وهو كلامه كما قال تعالى «حتى يسمع كلام الله»
وليس كلام غيره، ولا يجوز أن يقال أن القرآن عبارة عن كلام الله
لأن الكلام يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئا لا إلى من قاله مبلغا مؤديا
أو متعبداً تاليا (ثانيا) ما أخرجه الطبرانى مرفوعا من حديث النواس
ابن سمعان مرفوعا إذا تكلم الله بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة
من خوف الله فاذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجداً فيكون
أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله بوحيه بما أراد فينتهى به على
الملائكة فكلما مر بسماء سأله اهلها ماذا قال ربنا قال الحق فينتهى به
حيث أمر) فهذا الحديث أيضا يدل على أن جبريل كان يسمع القرآن
ويكلمه الله به وهو يؤديه كما سمع كيف وقد وصفه الله بانه أمين.

٢ — ﴿كيفية نزول القرآن وهنا مقامان﴾

«المقام الاول» فى كيفية نزوله من اللوح المحفوظ الذى هو الذكر

وأم الكتاب، قال الله تعالى « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » دل ذلك على أن القرآن مثبت فى اللوح المحفوظ ولم يذكر كيفية ذلك وحقيقته فوجب الايمان به مع تفويض علم حقيقته وكيفيته إلى الله تعالى

وقال الله تعالى «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان» وقال تعالى «انا أنزلناه فى ليلة مباركة» وقال تعالى «انا أنزلناه فى ليلة القدر» وقد ثبت فى الروايات الصحيحة أن أول ما نزل من القرآن «اقرأ ولم ينزل معها غيرها ثم فتر الوحى بعد ذلك، والمشهور أن ذلك كان فى ربيع الاول، كما أنه من الثابت الواقع ان القرآن نزل فى غير رمضان من أشهر السنة.

فكيف يكون التوفيق بين ما ذكر من الآيات مع بعضها وبينها وبين الواقع الثابت

وبيان ذلك أن الآيات الثلاث أفادت انزاله جملة واحدة وأن ذلك كان فى شهر رمضان فى ليلة القدر وهى الليلة المباركة وأن هذا الانزال كان من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، يدل على ذلك ما أخرجه الحاكم والبيهقى وغيرهما من طريق منصور عن ابن عباس (قال أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا وكان بمواقع النجوم وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه فى أثر بعض) وقد ذكر فى الاتقان روايات أخرى عن ابن عباس بهذا المعنى، وقال أسانيدها كلها صحيحة وهذا لا يقوله ابن عباس بمحض الرأى والاجتهاد بل له حكم المرفوع، وإذا كانت هذه الآيات لا تنافى بينها فهى لا تنافى الواقع الثابت من أنه نزل على النبى ﷺ فى غير شهر

رمضان وليلة القدر لأن ذلك فى نزوله إلى سماء الدنيا كما علمت، وهذا فى نزوله على النبي ﷺ منجما بحسب الوقائع والأحوال وجواب الأسئلة والأمثال فى عشرين سنة، أو ثلاثة وعشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة على الخلاف فى مدة أقامته فى مكة بعد البعثة هل هو عشر سنين أو ثلاث عشرة سنة، أو خمس عشرة سنة وأما إقامته بالمدينة فهى عشر سنين إتفاقا. وهذ البيان الذى ذكرناه فى المراد من الآيات المذكورة وطريق الجمع بينها هو الصحيح المعتمد، حتى حكى بعضهم الأجماع عليه و (الحكمة) فى إنزاله جملة واحدة إلى سماء الدنيا تفخيم أمره وأمر من نزل عليه باعلام سكان السموات السبع بأن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم وفى ذلك تكريم لبنى آدم واظهار شأنهم عند الملائكة ولهذا المعنى قد أمر الله سبعين ألف ملك أن يشيعوا سورة الأنعام وقت نزولها كما دلت على ذلك الروايات الصحيحة

(المقام الثانى) فى كيفية إنزاله على النبي ﷺ

اختص القرآن الكريم من بين الكتب السماوية بأنه نزل على النبي ﷺ منجما مفرقا حسب الوقائع والحوادث وإجابات السائلين وقد دل على ذلك القرآن الكريم والسنة الصحيحة قال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) كما ورد فى نزول القرآن فى السنة الصحيحة أن أول ما نزل (اقرأ) ثم (المدثر) وأن الآيات المفتتحة بقوله تعالى يسألونك) مثل (يسألونك عن الروح) (يسألونك عن الساعة) (يسألونك عن الخمر) وهكذا كانت تنزل جوابا للأسئلة التى

توجه إلى النبي ﷺ إما لبيان حكم، أو للتثبت من نبوته وغير ذلك مما يدل على أن القرآن نزل مفرقا

«أما الكتب السماوية السابقة» فالمشهور بين العلماء أنها نزلت جملة واحدة حتى كاد ذلك الرأى يكون اجماعا وهو الصواب، والدليل عليه قوله تعالى حكاية عن اليهود أوالمشركين وردا عليهم «وقالوا لولا نزل هذا القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا» ووجه دلالة هذه الآية على أن الكتب السابقة نزلت جملة واحدة أنها لو كانت قد نزلت مفرقة لكان رد الله عليهم بأن ذلك سنة الله فى الكتب التى أنزلها على أنبيائه السابقة كما رد عليهم فى قولهم «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق» بقوله «وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق» وكما رد على قولهم «أبعث الله بشرا رسولا» بقوله «وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى اليهم» وهنا لم يرد الله عليهم بأن ذلك سنته فى إنزال الكتب بل أجابهم ببيان الحكمة فى إنزاله مفرقا لقوله «كذلك لنثبت به فؤادك» أى لنقوى به قلبك فان الوحى إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان ذلك أقوى بالقلب وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من جناب الحق فيحصل له من السرور ما تقصر عنه العبارة فكان ذلك دليلا على أن تفريق نزول القرآن مختص به ﷺ، ومما يدل أيضا على أن التوراة نزلت جملة واحدة قوله تعالى «فخذها بقوة» وقوله «خذوا

ما آتيناكم بقوة» وقد علمت مما تقدم أن الله تعالى قد جمع فى القرآن الأمرين: إنزاله جملة إلى سماء الدنيا للحكمة التى تقدمت وإنزاله مفرقا على النبى ﷺ لما سنذكره من حكم ذلك.

﴿ بيان حكمة إنزال القرآن مفرقا أمور ﴾

١) تثبيت فؤاد النبى ﷺ بسبب توالى نزول الوحى عليه وذلك من كمال عناية الله تعالى به وقد ذكر الله هذه الحكمة بقوله «كذلك لنثبت به فؤادك» وقد ثبت الله تعالى فؤاده فى أشد المواقف وأحرجها أنظر إلى قوله لأبى بكر فيما حكاه عنه الله تعالى «لا تحزن إن الله معنا» وما ذلك إلا من قوة يقينه ووثوقه بنصر الله مع ما يحيط به من الأعداء، وانظر إلى حالته ﷺ فى غزوتي أحد وحنين وقد انهزم عنه أصحابه وهو ﷺ لم يزدد الا قوة وتثبيتاً وذلك كله بما كان يواليه الله به من تتابع الوحى وذكر قصص الأنبياء وأممهم، وكيف كانت عاقبة الصبر، يضاف الى ذلك تتابع الوحى بالوعد والوعيد والبشارة والنذارة مما كان له أكبر الأثر فى تثبيت فؤاده ﷺ، ولا غرو فقد كانت هذه الحكمة من أعظم الحكم التى من أجلها نزل القرآن منجما لذا جعلها الله خير رد على من اعترض بعدم نزول القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم جملة واحدة وأنه خالف بذلك سنن الكتب السابقة

٢) قال الله تعالى «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا» أى لتقرأه على تؤدة وتمهل: وهذه الحكمة التى ذكرها الله تعالى لانزال القرآن مفرقا وهى قراءة النبى ﷺ له على الناس على

مكث وقد اشتملت هذه الحكمة العظيمة على مصالح عظيمة للعباد وهى

(أولا) انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارة من نفوسهم شيئا فشيئا لما كان متأصلا فى نفوسهم من عبادة الأوثان والاستقسام بالانصاب والأزلام ووأد البنات ونكاح نساء الآباء وإكراه الفتيات على البغاء وقتل الأولاد خشية الاملاق وشن الحروب والغارات لأوهى الأسباب والتعامل بالربا وفشو الزنا وشرب الخمور وغير ذلك من الأخلاق السيئة فنزل القرآن على التدريج ليكون ذلك ملائما للطبائع البشرية التى يشق عليها ترك ما تعودته دفعة واحدة لذا خاطبهم أولا باصلاح العقيدة وبتوحيد الله حتى إذ أقروا بوجود الله ووحدوه خاطبهم بما ينهى عنه الآله وبما يأمر به (ثانيا) التدرج فى نشر العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة والأحكام التى بها تصح العبادة والمعاملة (ثالثا) تفهم القرآن وتدبر معانيه والوقوف على أسراره ودقائقه حتى يتمكنوا من العمل به على الوجه الأتم الأكمل فتتربى فى الأمة القوتان النظرية والعملية؛ ولذا ورد عن ابن مسعود أنه قال «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن (رابعا) تيسير حفظه على المسلمين فانهم قد ابتلوا فى حياة الرسول ﷺ بالاضطهاد والأذى من كفار قريش قبل الهجرة حتى اضطر كثير منهم إلى ترك أهله وماله ووطنه فرارا بدينه، وبعد الهجرة ابتلوا كثيرا بمعاداة اليهود والمنافقين وبالحروب التى قامت بينهم وبينه قريش وكانت سببا فى تمكين الاسلام ونشره فلو أن القرآن نزل جملة

واحدة لما وسعهم حفظه مع هذه الأحوال التى يعتبر حفظهم للقرآن مع نزوله مفرقا وقيامها من أعظم الأدلة على تصديق وعد الله فى قوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فانظر إلى هذه الحكمة التى ذكرها الله تعالى بقوله « لتقرأه على الناس على مكث » قد انتظمت أربع حكم وهى التدرج فى تطهير الأمة من العقائد الفاسدة والعادات السيئة، والتدرج فى تعليمها الأخلاق الفاضلة والعبادات النافعة، والتمكين لها فى فهم القرآن ومعرفة أسراره، والتيسير عليها فى حفظه واستظهاره حتى صارت الأمة حاملة لواء الدين حامية لذماره وبهذا كله أمكن لهؤلاء السلف أن يبلغوا القرآن للأمم التى لم تكن عربية ولمن بعدهم مع تمام العناية فى حفظه وضبطه وفهم معانيه وتدبر أحكامه وذلك بفضل وعد الله بأن يتم نوره ولو كره الكافرون.

٣) مجاراة الحوادث فى تجددها فقد شاءت إرادة الله تعالى أنه كلما وقعت حادثة لم يكن حكمها معروفا عند المسلمين أن تنزل آية مبينة لحكمها عقب وقوعها، ومن البدهى أن هذه الحوادث لم تقع جملة واحدة حتى تنزل آيات بأحكامها دفعة واحدة فكانت الحكمة والمصلحة فى تفريق الآيات الخاصة بأحكام الحوادث التى تقع، ومن تلك الحوادث ١) « حادثة » هلال بن أمية مع زوجته التى نزلت فيها آية اللعان وحكمه ٢) حادثة خولة بنت ثعلبه التى ظاهر منها زوجها ونزلت فيها آية الظهار وحكمه (٣) حادثة الأفك التى نزلت فيها آيات ببراءة السيدة عائشة وحكم الأفك وأهله (٤) حادثة زيد مولى رسول الله ﷺ التى

أنزل فيها حكم التبنى فى الإسلام وأثره وغير ذلك من الجزئيات التى لو تتبعناها لطال بنا المقال .

٤) إجابات السائلين الذين كانوا يوجهون إلى رسول الله ﷺ أسئلة إما بقصد معرفة الحكم، أو بقصد التثبت من رسالته ﷺ، ومن النوع الأول «يسألونك عن الأهلة الخ» «يسألونك عن الخمر والميسر الخ» «يسألونك ماذا ينفقون قل العفو» ومن النوع الثاني «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى» «يسألونك عن ذى القرنين الخ» ومن المعلوم أن هذه الأسئلة لم تقع جملة فى وقت واحد، بل وقعت متفرقة فى أوقات مختلفة لأغراض متنوعة فكان نزول القرآن مفرقا بإجاباتها طبق وقوعها، وفى ذلك الدليل الواضح على أنه ﷺ ما كان يشرع الأحكام من تلقاء نفسه وما كان يخبر عما غاب عنه ولم يكن حاضرا له بمقتضى علم عنده، وإنما ذلك كله من لدن الحكيم الخبير الذى أرسله رحمة للعالمين ولكون ذلك من علامات صدقه ﷺ فقد حملت الكثيرين من أهل الكتاب والمعاندين على تصديقه والاستجابة لدعوته

(٥) كشف حال المنافقين وإبراز مكنون أسرارهم فيما كانوا يحفونه على النبى ﷺ ومن آمن معه وما كانوا يظاهرون به الكفار وأهل الكتاب ليأمن النبى ﷺ شرهم ويقف المؤمنون على أحوالهم فلا يغتروا بأقوالهم وأفعالهم سيما وقد كان المنافقون متظاهرين بالإسلام وهم مختلطون بالمسلمين واقفون على أسرارهم وأحوالهم فكانوا كلما عزموا أمرا نقضه الله أو بيتوا كيدا أظهره الله فأظهر فضائحهم وجعل

مكنون أسرارهم معلوما لرسوله ولمن آمن معه من المؤمنين وذلك بانزال القرآن فى شأنهم كلما فعلوا ذاك حتى بطل كيدهم ومكن الله بنصره للنبي والمؤمنين

وإن شئت أن تقف على نموذج مما ورد فى شأنهم فاقرأ قوله تعالى «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين الآيات الى قوله ان الله على كل شىء قدير» فى سورة البقرة قوله تعالى فى سورة النساء «الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين الآيات إلى قوله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا» وقوله تعالى فى سورة الحشر «ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لأخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد أنهم لكاذبون» إلى آخر الآيات وقولة تعالى فى سورة المنافقين «إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون الآيات إلى قوله ولكن المنافقين لا يعلمون» وغير ذلك من الآيات التى كانت تنزل تنبيها للنبى ﷺ وتحذيرا للمؤمنين حتى يكونوا دائما بمأمن من كيدهم فان العدو الخفى المخالط أضر وأنكى من العدو الظاهر المباين فلله الحمد لا نحصى ثناء عليه .

٦) تنبيه المؤمنين من وقت لآخر على ما كان يحصل منهم من خطأ فى غزواتهم مع النبى ﷺ وتحذيرهم من عواقب المخالفة وبيان

الامتنان عليهم بالنصر مع القلة وفى ذلك من كمال التأديب والتهذيب ما بلغوا بسببه أسباب النصر :أنظر:إلى ماقصه الله فى سورة آل عمران بشأن غزوتي بدر وأحد من الامتنان والتنبيه والتحذير، وما قصه الله بشأن غزوات حنين والأحزاب وغير ذلك ،وبدهى أن تلك الغزوات وماوقع فيها لم تكن جملة واحدة فكان ما يقصه الله تعالى بشأنها مفرقا بمنزلة تعهد السيد الرحيم بعبيده من وقت لآخر كلما حدثت منهم مخالفة ذكرهم بالنعمة حتى يكونوا دائما قائمين عند امره ونهيه ولله المثل الأعلى فهو أبر بالمؤمنين من السيد بعبيده بل أرحم بهم من انفسهم

٧) تثبيت المؤمنين بما كان يقصه القرآن من وقت لآخر من احوال الأمم الماضية وكيف كانت عاقبة من امن واتبع رسوله وأن النصر مع الصبر وأن الفوز باتباع اوامر الله واجتناب نواهيه وإن عاقبة المكذبين الهلاك والدمار وقد تكرر ذلك فى القرآن فى غير ما آية مما لو تتبعناه لخرجنا عن حد الاختصار وقد كان لذلك اعظم الأثر فى ثبات المسلمين وتثبيتهم وفى هذا الذى ذكرناه كفاية لمن اراد تعرف حكمة نزول القرآن مفرقا وفيه أبلغ رد على من حاول الاعتراض على نزول القرآن مفرقا وهناك حكم كثيرة يطول المقام بذكرها وقد اقتصرنا على الأهم منها.

(٣) اول مانزل وآخر مانزل

هذا البحث من المباحث العظيمة يتعلق به فوائد مهمة «منها» معرفة الناسخ من المنسوخ عند التعارض «ومنها» معرفة التدرج فى

التشريع كمعرفة الآيات التى وردت فى شأن الخمر « ومنها » معرفة تاريخ التشريع الأسلامى إذا علم أن الآيات الدالة على وجوب شهر رمضان نزلت فى مكان كذا فى سنة كذا مثلا. وهذا البحث عمدته النقل ولا طريق فيه للعقل، ثم أولية النزول وآخريته تارة تكون على الأطلاق يعنى أولية النزول على الأطلاق، وآخريته على الأطلاق، وتارة تكون بالنسبة إلى موضوع معين، وتسمى أولية مقيدة وآخرية مقيدة كأول ما نزل فى الخمر وآخر ما نزل فيه وأول ما نزل فى القتال وآخر ما نزل فيه وأول ما نزل فى الربا وآخر ما نزل فيه وأول ما نزل فى الميراث وآخر ما نزل فيه وهكذا وكلامنا الآن فى أول ما نزل على الأطلاق وآخره على الأطلاق وأما الأوائل والأواخر المقيدة بموضوع معين فهى كثيرة يستلزم ذكرها استقراءاً تاما مع ذكر جميع الروايات الصحيحة فى ذلك، وذلك مما يحتاج إلى مؤلف مطول خاص لذا اقتصرنا على بيان اول ما نزل على الأطلاق وآخره وذكر الروايات فى ذلك وطرق الجمع بينها فنقول.

﴿ اول ما نزل ﴾

وفيه أربعة أقوال « اولها » أن أول ما نزل « اقرا » وهو مروى عن عائشة رضى الله عنها وبه قال قتادة وابو صالح ويؤيده ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت « اول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان يأتى حراء فيتحنث

فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فيه فقال اقرأ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ما انا بقارىء فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق حتى بلغ ما لم يعلم فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره» إلى آخر الحديث؛ وأخرج الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى فى الدلائل وصححاه عن عائشة « قالت أول سورة نزلت من القرآن اقرأ باسم ربك » وأخرج الطبراني فى الكبير بسند على شرط الصحيح عن أبى رجاء العطاردى قال: كان أبو موسى يقرئنا فيجلسنا حلقا . عليه ثوبان أبيضان فاذا تلا هذه السورة « اقرأ باسم ربك الذى خلق» قال هذه أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم »وقد وردت روايات كثيرة أخرى تؤيد هذا القول وهو الصحيح المشهور عند الرواة

(القول الثانى) أن أول ما نزل (ياأيها المدثر)وروى هذا القول عن جابر روى الشيخان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال سألت جابر بن عبد الله أى القرآن أنزل قبل قال ياأيها المدثر قلت أو اقرأ باسم ربك قال أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ . قال رسول الله ﷺ إني جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وشمالى ثم نظرت إلى السماء فاذا هو . يعنى

جبريل فأخذتني رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني فأنزل الله « ياأيها المدثر قم فانذر » وقد علمت أن القول الأول هو الصحيح ويجاب عن حديث جابر بأمور (أولها) أن كلام جابر فى أول سورة نزلت بكمالها وسورة المدثر نزلت بكمالها قبل تمام سورة اقرأ، ويؤيد ذلك ما رواه الشيخان عن جابر نفسه قال سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه « بينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرجعت فقلت زملوني زملوني فدثرونى فأنزل الله ياأيها المدثر » ولا شك أن قوله فى هذه الرواية . فاذا الملك الذى جاءنى بحراء . يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التى نزل فيها اقرأ: ويدل بالأولى على تأخر نزول المدثر عن نزول اقرأ إلا ان تحمل رواية جابر الأولى على ما قدمنا فتكون أولية المدثر مقيدة بالسورة الكاملة وليس المراد بها الأولية المطلقة .

(ثانيها) أن مراد جابر بأولية المدثر أولية مقيدة أيضا بما بعد فترة الوحى لا الأولية المطلقة .

(ثالثها) أن المراد بها أولية مقيدة بالانذار لا أولية مطلقة وعلى كل فما قاله على أحد هذه الأجوبة لا يعارض الصحيح الذى روى عن عائشة

« القول الثالث » أن أول ما نزل سورة فاتحة الكتاب وقد استند صاحب هذا القول إلى ما أخرجه البيهقى فى الدلائل والواحدى من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن أبى ميسرة

عمر بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال لخديجة إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداءا فقد والله خشيت على نفسى أن يكون هذا أمرا فقالت معاذ الله ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث.فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له وقالت إذهب مع محمد إلى ورقة فانطلقا فقصا عليه فقال إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى يا محمد يا محمد فانطلق هاربا فى الأفق فقال لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى فأخبرنى. فلما خلا ناداه يا محمد قل « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين » وهـــذا الحديث مرسل وإن كان رجاله ثقات فلا يعارض حديث عائشة المرفوع .

(القول الرابع) أن أول ما نزل « بسم الله الرحمن الرحيم » حكاه ابن النقيب فى مقدمة تفسيره أخرج الواحدى باسناده عن عكرمة والحسن قالا أول ما نزل من القرآن بسم الله الرحمن الرحيم وأول سورة إقرأ» وهذا لا ينبغى أن يعد قولا برأسه فانه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها وعلى ذلك فتكون البسملة أول آية على الأطلاق وقد نزلت مع اقرأ وبهذا قد تبين أن القول الأول هو الحق والله أعلم

آخر ما نزل

قد اختلف فى بيان آخر ما نزل من القرآن على أقـوال كثيرة كلهـا مستندة إلى آثار ليس فيها شىء مرفوع واليك الأقوال مع ذكر ما استند اليه كل قول من الروايات «أولها» أن آخر ما نزل قوله تعالى

«يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا» . أخرج البخارى عن ابن عباس أن آخر آية نزلت آية الربا . وروى البيهقى عن عمر مثله

«ثانيها» أن آخر ما نزل «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» الآية أخرجه النسائى من طـــريق ابن عكرمة عن ابن عباس وروى عن سعيد بن جبير أنه قال آخر ما نزل من القرآن كله «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» الآية وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية تسع ليالى ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول

«ثالثها» أن آخر القرآن نزولا آية الدين .

أخرج ابو عبيد فى الفضائل عن ابن شهاب قال آخـر القرآن عهدا بالعرش آية الربا وآية الدين

وأخرج ابن جرير من طريق ابن شهاب عن سعيد بن المسيب انه بلغه أن أحدث القرآن عهدا بالعرش آية الدين مرسل صحيح الأسناد

وبالنظر فى هـــذه الأقوال الثلاثه يظهر أنه لا تنافى بينها، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة طبق ترتيبها فى المصحف ولأنها فى قصة واحدة فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر ما نزل وعلى ذلك فهذه الأقوال الثلاثة تعتبر قولا واحدا وهو الصواب

(القول الرابع) أن آخر آية نزلت (ويستفتونك قل الله يفتيكم فى الـــكلالة) وآخر سورة نزلت براءة روى ذلك البخارى ومسلم عن البراء بن عازب

(القول الخامس) آخر سوره نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) أخرجه مسلم عن ابن عباس

(القول السادس) آخر مانزل سوره المائدة أخرجه الترمذى والحاكم عن عائشة

(القول السابع) آخر آية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) أخرجه البخارى عن ابن عباس

(القول الثامن) آخر ما نزل آية (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل إلى آخر الآية) وهو مروى عن أم سلمة

القول التاسع) آخر آية نزلت لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر السورة) وهو مروى عن أبى بن كعب .

هذه هى الأقوال والآثار التى وردت مؤيدة لها ، وهى بحسب الظاهر متعارضة ، ولبيان الجمع بينها نقول :ـ قد علمت مما سبق أن ماورد فى آية الربا والدين لاتنافى فيه ، لأنها نزلت دفعة واحدة طبق ترتيبها فى المصحف ، والظاهر أنها آخر ما نزل على الاطلاق؛ لكثرة الآثار الواردة فيها وقوتها،وأما الأقوال الأخرى فيحمل كل قول منها على آخرية مخصوصه مقيدة .

فيقال : إن آية (ويستفتونك) آخر ما نزل فى شأن المواريث ، وآية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) آخر مانزل فى شأن القتل ، وآية (فاستجاب لهم) آخر مانزل فيه تصريح بذكر النساء وسورة (إذا

جاء نصر الله» آخر ما نزل مشيرا إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وآية «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» آخر ما نزل من سورة براءة «وسورة براءة» آخر ما نزل فى شأن القتال ولم يطرأ عليه نسخ «وسورة المائدة آخر ما نزل من الحلال والحرام ولم يطرأ عليه نسخ؛ بدليل قول السيدة عائشة فما وجدتم فيهما من حلال فأحلوه. هذه طريقة الجمع والتوفيق بين ما رجحناه من أن آخر ما نزل آية الربا والدين وبين ما ورد من الآثار الأخرى.

وقال القاضى أبو بكر فى الانتصار. هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه سلم، وكل قاله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى مات فيه؛ أو قبل مرضه بقليل وغيره سمع منه بعد ذلك، وإن لم يسمعه هو.. ويحتمل أيضا أن تنزل هذه الآية التى هى آخر آية تلاها الرسول صلى الله عليه وسلم مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك، فيظن أنه آخر ما نزل فى الترتيب اه نقله فى الاتقان

وقد استشكل على جميع الأقوال السابقة بان قوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الأسلام دينا» نزل بعرفة عام حجة الوداع، وظاهره إتمام جميع الفرائض والاحكام والحلال والحرام قبلها؛ فيكون ذلك آخر ما نزل مع أن أكثر الأقوال السابقة يقتضى نزول أحكام وحلال وحرام بعدها، مثل ما ورد فى آية

الربا والدين ، وآية الكلالة ، وآية القتل ، وسورة المائدة وسورة براءة وقد أجاب عن هذا الاشكال ابن جرير وقال : الاولى إن يتأول (يعنى قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم » على أنه أكمل لهم دينهم باقرارهم فى البلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون لا يخالطوهم المشركون ، ثم أيده بما أخرجه من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال كان المشركون والمسلمون يحجون جميعا ، فلما نزلت براءة نفى المشركون عن البيت ، وحج المسلمون لا يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان ذلك من تمام النعمة « وأتممت عليكم نعمتى » اه وعلى هذا فلا تكون هذه الآية منافية لما قيل إنه آخر ما نزل

(٤) ﴿ أسباب النزول ﴾

« سبب النزول » معناه هو ما نزلت الآية أيام وقوعه متضمنة له أو مبينة لحكمه « قولنا ما نزلت الآية » أى حادثه أو واقعة ، أو سؤال ، مثل . آيات الظهار واللعان والخمر ، وآيات الروح ، والساعة وذى القرنين وغيرها ، فان آياتها نزلت متضمنة « أى مشتملة » عليها أيام وقوعه ، أى فى إبان حدوثها فخرج بذلك ما تضمنته الآية بعد أيام وقوعه ، كالآيات المشتملة على قصص الأنبياء السابقين وأممهم فأن هذه القصص لاتعتبر أسباب نزول وإنما هى أخبار عن حوادث سابقة ، دعا إلى ذكرها مقامات ، وكذا الآيات المتضمنة لأمور مستقبلة كالآيات المتضمنة لاحوال اليوم الآخر وما فيه فإن ما تضمنته لايعتبر سبب نزول ، وكذلك الآيات الاخبارية ، أو المتضمنة لأحكام

إنشائية فليس لها أيضا سبب نزول، وعلى هذا فالقرآن الكريم من حيث نزوله على قسمين :

(أولهما) مانزل ابتداء غير مبنى على سبب من سؤال أو حادثة

(ثانيهما) مانزل مبنيا على سبب من سؤال أو حادثة . والسؤال أو الحادثة التى نزلت الآية متضمنة له أيام وقوعه ، هو المعبر عنه بسبب النزول ، وقد عرفت معناه

﴿ فائدة معرفة سبب النزول ﴾

أولا ـ الوقوف على معنى الآية وإزالة الاشكال وقد قال الواحدى لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها و بيان نزولها ، وقال ابن دقيق العيد : بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معاني القرآن ، وقال ابن تيمية معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ، ولنذكر أمثلة كان معرفة السبب فيها عونا على فهم المراد من القرآن ، وزوال الاشكال

منها ـ أن مروان ابن الحكم قد أشكل عليه معنى قوله تعالى « لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا » الآية وقال لئن كان كل امرىء فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا « لنعذبن أجمعون » حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت فى اهل الكتاب ، حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك اليه أخرجه الشيخان

«ومنها» أنه أشكل على بعض الأئمة معنى الشرط فى قوله تعالى

« واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر » وتوهم أن اليائسة لا عدة عليها ؛ فلما عرف السبب وهو أنه لما نزلت الآية التى فى سورة البقرة فى عدد النساء قالوا قد بقى عدد من عدد النساء لم يذكرن. الصغار والكبار ؛ فنزلت أخرجه الحاكم عن أبى ؛ فعلم بذلك أن الآية خطاب لمن لم يعلم حكم عدة اليائسات من النساء وارتاب هل عليهن عدة أولا ، وهل عدتهن كما ذكر فى سورة البقرة أولا . فمعنى الشرط «وهو إن ارتبتم» إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتدون فهذا حكمهن

ومنها) أن عروة بن الزبير فهم عدم فرضية السعى بين الصفا والمروة فهما من ظاهر قوله تعالى (أن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » فان الآية نفت الجناح (الأثم) وهذا لا يقتضى الفرضية بظاهره ؛ حتى ردت عليه السيدة عائشة رضى الله عنها وبينت له سبب نزولها وهو أن الصحابة تأثموا من السعى بينهما لأنه من عمل الجاهلية . اه

أى فقد نزلت الآية لنفى ما توهموه وهو الاثم على من سعى بينهما فهذه الأمثلة وكثير غيرها تدل على أن لمعرفة سبب النزول أثرا كبيرا فى معرفة المعنى ، وبذلك ترتفع اشكالات كثيرة وتزول أوهام باطلة ، ولولا معرفة السبب لظلت راسخة ؛ ومن هنا كانت عناية السلف بمعرفة أسباب النزول عظيمة :

الفائدة الثانية) معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ؛

فان ذلك قد يعرف من سبب النزول وذلك مثل سبب نزول قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون » وسبب نزول قوله تعالى فى سورة الأحزاب « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه إلى قوله فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » فان الحكمة فى الأولى دفع التخليط فى الصلاة قراءة وأفعالا والحكمة فى الثانية ذكرها الله بقوله لكى لا يكون على المؤمنين حرج الخ

الفائدة الثالثة) تخصيص الحكم بصورة السبب : عند من لا يلتفت إلى عموم اللفظ ، فهذا لا بد له من معرفة السبب : حتى يجعل الحكم قاصرا عليه ، أى المستفاد من الآية وأما حكم غيره فهو ثابت بالقياس عنده ، فلو لم يعرف السبب لا يخص به الحكم : ولا يمكنه أن يقيس عليه ، مثل آية الظهار وغيرها

الفائدة الرابعة » معرفة بقاء صورة السبب قطعا: وعدم اخراجها من العام بالتخصيص ، فى حالة ما إذا قام الدليل على تخصيص العام ، فانه متى عرف السبب علم أن حكمه باق قطعا ، وأن التخصيص لم يتناوله ، وأن الذى خرج من العام هو ماعداه ولو لم يعرف سبب النزول ، لتوهم أنه ضمن ما خرج بالتخصيص ، مع أن ذلك مخالف للاجماع :

الفائدة الخامسة » معرفة من نزلت فيه الآية وتعيين المبهم فيها ولذلك أمثلة فى القرآن كثيرة : —

طريق معرفة سبب النزول

طريق العلم بسبب النزول الرواية الصحيحة : قال الواحدى فى كتابه أسباب النزول ؛ ولا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها ؛ وجدوا فى الطلاب اه

ومعرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا وربما لم يجزم بعضهم . فقال أحسب هذه الآية نزلت فى كذا : ـ

وقد قرر ابن الصلاح والحاكم وغيرهما فى علوم الحديث أن الصحابي الذى شهد الوحى والتنزيل إذا أخبر عن آية أنها نزلت فى كذا ، فانه حديث مسند ، أى لأن قول الصحابي فيما لا مجال للرأى والاجتهاد فيه ؛ بل عمدته النقل والسماع ، محمول على سماعه من النبى ﷺ لأنه يبعد جدا أن يقول ذلك من تلقاء نفسه ، لذا قرروا : أن رواية الصحابى فيما كان من هذا النوع كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ ، وتعيين بعض مبهمات القرآن ، له حكم المرفوع ، وأما قول التابعى فى ذلك فهو مرسل ، فاذا اعتضد بمرسل آخر ، وكان الراوى له من أئمة التفسير قبل ، وقد ذكرنا مثل ذلك فى بحث التفسير بالمأثور «ولا يجوز» القول فى سبب النزول بغير علم «روى الواحدى بسنده عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ «اتقوا الحديث إلا ما علمتم فانه من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار» ثم قال : والسلف الماضون رحمهم الله كانوا من أبعد الغاية احترازا عن القول

فى نزول الآية وروى أيضا عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال اتق الله وقل سدادا. ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن اه فهذا كله وعيد لمن يقول فى أسباب النزول وهو غير واثق مما يقول

﴿ عبارات الرواة فى سبب النزول على ضربين ﴾

« أحداها قولهم « سبب نزول هذه الآية كذا » وهذه العبارة نص فى بيان السبب

« الثانية » قولهم « نزلت هذه الآية فى كذا » وهذه ليست نصا فى بيان السبب ؛ بل هى محتملة لأن يكون المراد بها بيان ماتضمنته الآية من الحكم ، ولأن يكون المراد بها بيان سبب النزول

﴿ بيان تعدد الرويات فى سبب النزول ﴾

لتعدد الرويات فى أسباب النزول أحوال:

« أحداها » أن يقول راويان أو أكثر نزلت هذه الآية فى كذا ، وكل يقول غير مايقوله الآخر ، وقد تقدم أن هذه العبارة ليست نصا فى بيان السبب ؛ فيراد بها التفسير وبيان الحكم ، فاذا كان اللفظ يحتمل قول كل حمل على الجميع ، ولا منافاة ، وإلا تعين مايقتضيه اللفظ أو تؤيده الأدلة

(ثانيها أن يقول أحدهما نزلت فى كذا ، ويقول الآخر سبب نزول هذه الآية كذا ، فالعبارة الثانية نص مغن فى بيان السبب وعليها المعتمد فى ذلك ، وأما الأولى فلا يعول عليها حينئذ فى بيان السبب مثال ذلك : مارواه البخارى عن ابن عمر قال : أنزلت (نساؤكم حرث

لكم» فى إتيان النساء فى أدبارهن) أى فى تحريم ذلك ولا شك أن هذا من ابن عمر استنباط لبيان الحكم ، وأما مارواه مسلم عن جابر قال (كانت اليهود تقول من أتى امرأة من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول» فأنزل الله نساؤكم حرث لكم (الآية فانه صريح فى ذكر السبب ؛فكان هو المعتمد فى ذلك وهاتان الحالتان لم يصرح فيهما كل منهما أو أحدهما بالسببية :أما أن يذكر كل من الراويين أو أكثر سببا غير الذى يذكره الآخر ويصرح بذكر السببية ففى هذه الحالة إما أن يستوى الاسنادان فى الصحة أولا ، وفى حالة الاستواء ، إما أن يمكن الترجيح بينهما أولا وفى حالة عدم إمكان الترجيح : إما أن يمكن نزول الآية عقب السببين أولا ، فههنا أربعة أحوال ١) عدم استواء الاسنادين فى الصحة ٢) استواؤهما مع إمكان الترجيح بينهما ٣) استواؤهما مع عدم إمكان الترجيح بينهما ومع إمكان نزول الآية عقب كل منهما ٤) استواؤهما مع عدم إمكان الترجيح وعدم إمكان نزول الآية عقب كل منهما فهذه أربع حالات نبين حكم كل منها مع التمثيل لها

الأولى، أن يذكر راو سببا ويذكر الآخر سببا غيره وإسناد أحدهما صحيح والآخر ليس صحيحا فالصحيح هو المعتمد فى بيان السبب «مثاله» ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب « اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت يا محمد ما أرى شيطانك الا قد تركك فأنزل الله والضحى والليل إذا سجى ماودعك ربك وما قلى» وما أخرجه الطبرانى وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن

أمها وكانت خادمة رسول الله صلى الله عليه « أن جروا دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل تحت السرير فمات فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحى فقال ياخولة ما حدث فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . . جبريل لا يأتينى . . فقلت فى نفسى لو هيأت البيت وكنسته . فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو . . فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ترعد لحيته وكان إذا نزل عليه الوحى أخذته الرعدة » فأنزل الله والضحى إلى قوله فترضى » فهذان إسنادان كل منهما ذكر سببا للنزول غير ما ذكره الآخر والاسناد الأول هو الصحيح ، لذا كان هو المعتمد » وقد قال ابن حجر فى شرح البخارى قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريب ،وفى اسناده من لا يعرف،فالمعتمد ما فى الصحيح

« الحالة الثانية » أن يستوى الاسنادان فى الصحة مع تعدد السبب ويمكن ترجيح أحدهما على الآخر بوجه من وجوه الترجيح فالراجح هو السبب « مثاله » ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود « قال كنت أمشى مع النبى ﷺ وهو يتوكأ على عسيب ، فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لو سألتموه ، فقالوا حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحى ،ثم قال « قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وما أخرجه الترمذى وصححه عن ابن عباس قال قالت قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل

هذا الرجل ، فقالوا اسألوه عن الروح فسألوه فأنزل الله «ويسألونك عن الروح الآية» فالاسناد الأول يقتضى أن السؤال كان فى غير مكة وأن السائل اليهود ، والاسناد الثانى يقتضى أن السؤال كان فى مكة وأن السائل قريش بعد الاستفهام من اليهود والاسنادان صحيحان ويرجح الأول بوجهين «أحدهما» أنه رواية البخارى ، وهى أرجح من رواية الترمذى و «ثانيهما» أن الراوى فى الاسناد الأول وهو ابن مسعود كان حاضر القصة ، لأنه يقول «كنت أمشى مع النبى ﷺ الخ» بخلاف الراوى فى الاسناد الثانى وهو ابن عباس فانه لم يكن حاضرا للقصة ، وحضور الراوى للقصة مرجح لروايته على غيره .

الحالة الثالثة» أن يستوى الاسنادان فى الصحة ولا مرجح لأحدهما ويمكن الجمع بينهما والأخذ بهما بان لايكون بينهماتباعد، فيحمل ذلك على تعدد الأسباب لآية واحدة ولا مانع متى كانت الآية مفيدة لحكم السببين «ومثاله» ما أخرجه البخارى من طريق عكرمة عن ابن عباس «أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سمحاء ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم البينة أو حد فى ظهرك ، فقال يارسول الله إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ، فأنزل عليه «والذين يرمون أزواجهم حتى بلغ إن كان من الصادقين» وما أخرجه الشيخان عن سهل بن سعد قال جاء عويمر إلى عاصم بن عدى فقال اسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت رجلاوجد مع امرأته رجل يقتله أيقتل به ، أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول

صلى الله عليه وسلم فعاب السائل ، فأخبر عاصم عويمرا ، فقال والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأسألنه فأتاه ؛ فقال أنه نزل فيك وفى صاحبتك قرآن الحديث » فهذان الاسنادان صحيحان ولا مرجح لأحدهما عن الآخر ، ويمكن الأخذ بهما معا ، ويحمل ذلك على أن أول من سأل هلال بن أمية ، وصادف مجيء عويمر قبل إجابته ، فنزلت الآية فى شأنهما معا ؛ مبينة لحكم الحادثة التى وقعت لكل منهما وهى من نوع واحد ، ولامانع من ذلك

(الحالة الرابعة) أن يستوى الأسنادان فى الصحة ولا مرجح لأحدهما ولا يمكن الجمع بينهما والأخذ بهما معا ؛ فيحمل ذلك على تكرر نزول الآية الواحدة عقب كل من السببين ؛ أو الأكثر ؛ ولامانع من تكرر النزول تعظيما لشأن المنزل ، وتذكيرا به عند حدوث سببه حتى لا ينسى (ومثاله) ما أخرجه البيهقى والبزار عن أبي هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزل جبريل والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم سورة النحل « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به إلى آخر السورة » وما أخرجه الترمذى والحاكم عن أبى بن كعب (قال لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم ، فقالت الانصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله « وإن عاقبتم الآية » فالرواية الأولى تقتضى أن هذه الآية نزلت يوم أحد ، والثانية تقتضى أنها

نزلت يوم الفتح، وقد ثبت أن سورة النحل كلها مكية بما فيها هذه الآية. فيحمل على أن هذه الآية نزلت ثلاث مرات أولا بمكة قبل الهجرة ثم ثانيا يوم أحد. ثم ثالثا يوم الفتح تذكيرا من الله لعباده وتعظيما لشأن ما تضمنته، وتمكينا لروح العدل من نفوسهم، حتى فى حالة ظفرهم بعدوهم وظهورهم وذلك من كمال عناية الله بعباده المؤمنين وحسن تأديبهم وتهذيبهم.

فحاصل ما تقدم فى تعدد السبب ستة أحوال أربعة منها مصرح فيها بذكر السبب فى كل من الأسنادين وهى الأربعة الاخيرة، وواحدة لم يكن فى إسناديها تصريح بذكر السبب وهى الأولى قبل الاربعة وواحدة صرح فيها بذكر السبب فى أحد الاسنادين دون الآخر وهى الحالة الثانية قبل الاربعة، وقد علمتم حكم كل بالتفصيل.

﴿ تعدد المنزل مع كون السبب واحدا عكس ما تقدم ﴾

قد تنزل آيات متعددة متفرقة ويكون السبب لها جميعها واحدا ولا مانع من ذلك، لأن الواقعة الواحدة قد ينزل فيها آيات عديدة فى سور شتى ؛ (مثال ذلك) ما أخرجه الترمذى والحاكم عن أم سلمة « أنها قالت يارسول لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء فأنزل الله فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع إلى آخر الآية » وما أخرجه الحاكم عنها أيضا « قالت قلت يارسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزلت إن المسلمين والمسلمات ، وأنزلت إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ».

فهاتان آيتان متفرقتان نزلتا لسبب واحد ، وهو كلام السيدة أم سلمة رضى الله عنها ، ولا مانع من ذلك كما تقدم اهـ ملخصا من الاتقان وغيره مع بعض إيضاح

﴿ آراء العلماء فى عموم لفظ الآية إذا كان سببها خاصا ﴾

هذا البحث قد عنى به علماء الأصول عناية تامة لأنهم ينظرون فى حال الدليل من عموم وخصوص وإطلاق وتقييد وغير ذلك ومنشأ خلافهم فى اعتبار عموم لفظ الآية مع خصوص السبب ، أن بعضهم نظر إلى عموم اللفظ من حيث هو بقطع النظر عن السبب الخاص فأجرى له حكم العام و بعضهم نظر إلى أن السبب مخصص للفظ الآية العام ، وقبل تفصيل الخلاف والأدلة ، نذكر أحوال كل من السبب واللفظ النازل عليه من عموم وخصوص ، فنقول القسمة العقلية تقتضى أربع صور وهى (١) أن يكون كل من السبب واللفظ عاما (٢) أن يكون كل منهما خاصا وهذا القسمان ليسا محل خلاف بين العلماء لأن المطابقة حاصلة بين السبب الذى هو بمنزلة السوآل ، وبين اللفظ المنزل عليه الذى هو بمنزلة الجواب له ، (٣) أن يكون السبب عاما واللفظ خاصا ، وهذا القسم وإن صح عقلا لكنه لا يصح بلاغة لعدم وجود التطابق بين السوآل والجواب ، لأن الجواب حينئذ يكون غير شامل لأفراد السبب فيكون بمنزلة من يقول ، هل للمسلمين أن يفعلوا كذا ، فيجاب بأن لفلان أن يفعل كذا ويترك حال الباقين ، (٤) أن يكون اللفظ عاما والسبب خاصا ، وقد اختلف العلماء فى هذا القسم ، فذهب «الجمهور»

إلى أن العبرة بعموم اللفظ ولا نظر إلى خصوص السبب، بمعنى أنه متى كان لفظ الآية عاما وكان سبب نزولها خاصا كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب « مثل » حادثة هلال ابن أمية التى نزل عليها قوله تعالى « والذين يرمون أزواجهم الخ » ومثل حادثة الأفك التى نزل عليها قوله تعالى «إن الذين جاءوا بالأفك الخ» فان كلا من الحادثين خاص، ولفظ الآية الذى نزل على كل منهما عام، لأنه اسم موصول وهو من ألفاظ العام، وعلى هذا فيكون حكم الأفراد التى تناولها اللفظ جميعا مستفادا من لفظ الآية، سواء فى ذلك الفرد الخاص الذى فى صورة السبب وغيره، فحكم اللعان الثابت لهلال بن أمية الذى هو سبب النزول، ثابت لغير هلال من كل ماينطبق على لفظ الآية فحكم الجميع ثابت بالنص ولا يحتاج إلى اجتهاد

وذهب غير الجمهور إلى أن العبرة بخصوص السبب، بمعنى أن الحكم خاص بصورة السبب، وهو هلال بن أمية فهو المستفاد من الآية وأما حكم غيره فليس مستفادا من النص، بل هو ثابت بالقياس والاجتهاد «ومحل هذا الخلاف» مالم تقم قرينة أو دليل على أن الحكم المستفاد من الآية قاصر على السبب الذى الذى نزل عليه الآية، فاذا قامت قرينه أو دليل على ذلك فان الحكم يكون قاصرا على السبب

﴿ أدلة الفريقين ﴾

استدل الجمهور على ماذهبوا إليه بما يأتى « أولا » احتجاج الصحابة وغيرهم فى وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة وهذا

شائع ذائع بينهم ؛ ومن ذلك اتفاقهم على تعدية آية الظهار ، وآية اللعان ، وآيات القذف وآية السرقة ، إلى غير أسبابها الخاصة ؛ ولم يحتاجوا إلى إجتهاد أو قياس ، فدل ذلك على أن العبرة عندهم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

(الثانى) لو لم تكن العبرة بعموم اللفظ ، للزم استعمال اللفظ العام فى الخاص وصرفه عن ما وضع له ؛ بغير قرينة مانعة من العموم لكن اللازم باطل لأنه خلاف الأصل ولقائل أن يقول إن خصوص السبب مانع من حمل اللفظ على العموم فهو قرينـــة صادقة ولكن يدفع هذا القول ، بأن مجرد خصوص السبب ، لا يستلزم إخراج غــير السبب من متناول اللفظ العام فلا يصلح أن يكون صارفا عن استعمال اللفظ العام فى معناه الموضوع له وهو جميع أفراده التى منها صــورة السبب وغيره ، وحاصل هذا الدليل أنه لو كانت العبرة بخصوص السبب لـكان اللفظ العام مستعملا على خلاف الأصل وهو باطل ، ويكــون لا فائدة من إيراده عاما حينئذ ، بل يكون إيراده عاما موهما وهذا كله باطل وبهذا ثبت أن العــبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

« استدل غير الجمهور على ما ذهبوا إليه ، « أولا » لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لجاز إخراج صورة السبب بالتخصيص ، لكن التالى باطل ؛ وجه الملازمـــة : إن اللفظ العام يجوز إخــراج أى صورة منه بالتخصيص لا فرق بين صورة وأخرى ، وحينئذ فتكون صورة السبب كغيرها ، فى جواز إخراجها من لفظ العام . وأما وجه بطلان

وأما وجه بطلان التالى ،فلأن الاجماع منعقد على عدم جواز إخراج صورة السبب من العام ، وحينئذ فليست العبرة بعموم اللفظ بل بخصوص السبب « ويجاب عن هذا الدليل » بأن عدم جواز إخراج صورة السبب ، إنما جاء من دليل آخر ، وهو الاجماع لا من جهة كونه غير عام ، والدليل إنما يتم لو أن عدم جواز إخراج صورة السبب جاء من جهة كونه غير عام وماهنا ليس كذلك بل جاء من جهة دليل آخر ، لا من جهة خصوص اللفظ ، وعلى هذا فالملازمة باطلة ، فبطل هذا الدليل ، ولم يثبت به أن العبرة بخصوص السبب

«الدليل الثاني» من أدلة غير الجمهور لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لما كان لذكر السبب فائدة مع أنهم بالغوا فى بيانه وتدوينه وحفظه لكن التالى وهو عدم الفائدة فى ذكره باطل ويدفع هذا الدليل بمنع انتفاء الفائدة مطلقا لأنه لا يلزم من نفى الفائدة المعينة وهى تخصيص السبب بالحكم نفى الفائدة المطلقة بل لذكر السبب فوائد أخرى قد أشرنا اليها فى أول بحث الأسباب «منها» منع تخصيصه بالاجتهاد «ومنها» الاستعانة على تفسير معنى الآية وغير ذلك فليست فائدة ذكر السبب محصورة فى تخصيص الحكم به .

«الدليل الثالث» لو لم تكن العبرة بخصوص السبب لحنث من قال والله لا تغديت جوابا لمن قال له تغد عندى إذا تغدى عند غيره لكنه لا يحنث بيان الملازمة أنه لو لم تكن العبرة بخصوص السبب لشمل قوله والله لا تغديت التغدى عند المخاطب وعند غيره فيحنث

إذا تغدى عند غيره وقد قالوا انه لا يحنث فدل ذلك على أنهم اعتبروا خصوص السبب «والجواب عن هذا الدليل» انه يتم لو كان عدم الحنث ناشئا من اعتبار خصوص السبب وليس كذلك بل عدم الحنث بسبب ملاحظة العرف الخاص الذى يقضى بان الحالف فى مثل ذلك إنما أراد عدم التغدى عند مخاطبه لا عند كل أحد فيكون العرف قرينة على ارادة خصوص السبب وكلا منا فيما لم تقم فيه قرينة فليست هذه الصورة من محل النزاع فلم يصح هذا الدليل ولم يثبت به المدعى.

«الدليل الرابع» لو لم تكن العبرة بخصوص السبب بل بعموم اللفظ لكان اللفظ الذى هو بمنزلة الجواب غير مطابق للسبب الذى هو بمنزلة السؤال لأن السؤال حينئذ يكون خاصا والجواب يكون عاما وعدم المطابقة باطل لأنه ينافى مقاصد بلاغة القرآن «ويجاب» عن هذا الدليل أيضا بأننا نمنع الملازمة إذ المطابقة حاصلة لزيادة السؤال عن الجواب والزيادة لا تخرجه عن المطابقة لأنها عبارة عن تناول الجواب لما تناوله السؤال ولو زاد الجواب، نعم لو كان الجواب خاصا والسؤال عاما لما كانت بينهما مطابقة ؛ فهذا الدليل أيضا لم يتم فلم يثبت به المدعى وإذ قد بطلت أدلة غير الجمهور وثبتت أدلة الجمهور كان رأيهم وهو أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هو المعتمد ، ثم أننا قد أشرنا فى أول هذا البحث إلى أن الكل قائل بعموم الحكم لغير صورة السبب وأنه متعد اليه غير أن الجمهور يقولون بأن العموم مستفاد من النص وأما غير الجمهور فيقول أن حكم غير صورة السبب ثابت بالقياس

على صورة السبب فليس هناك من يقول أن حكم اللعان مثلاً والظهار قاصر على صورة سببه وهو من نزل فيه لا يتعداه إلى غيره بل الجميع يقول بأن الحكم شامل ومتعد على الوجه الذى ذكرناه ؛ ويظهر أن فائدة الخلاف حينئذ هى أن حكم غير صورة السبب يكون ثابتا بالنص الذى هو قطعى الثبوت وعند غيره يكون ثابتا بالقياس وهو ظنى لكن إن تأيد بإجماع فيكون قطعيا به فتنبه لذلك .

ولهذا قال ابن تيمية ما نصه قد يجىء كثيرا من هـذا الباب قولهم هذه الآية نزلت فى كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصا ، كقولهم إن آية الظهار نزلت فى امرأة ثابت بن قيس ، وإن آية الكلالة نزلت فى جابر بن عبد الله ، وأن آية قوله « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله » نزلت فى بنى قريظة والنضير ، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة ، أو فى قوم من اليهود والنصارى ، أو فى قوم من المؤمنين ، فالذين قالوا ذلك : لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ؛ فان هـذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الاطلاق ، والناس وإن تنازعوا فى اللفظ العـام الوارد على سبب ، هل يختص بسببه ، فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة ، تختص بالشخص المعين وإنما غاية ما يقال انها تختص بنوع ذلك الشخص ، فتعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ ، والآية التى لهـا سبب معين إن كانت أمراً أو نهيا فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته اهـ .

فائـدتان :

الأولى : قد تقدم أنه متى كان وكل من السبب واللفظ خاصا كان الحكم قاصرا على ذلك الخاص « مثال ذلك » قوله تعالى « وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى » فانها نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه واللفظ فيها وهو «الأتقى» خاص لأنه أفعل تفضيل مقرون بأل العهدية فيختص بمن نزل فيه ؛ وقد استدل الامام فخر الدين الرازى بهذه الآية مع قوله تعالى « ان اكرمكم عند الله أتقاكم » على أن أبا بكر أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وبيان الدليل هكذا ؛ أكرم الناس عند الله بعد الرسول الله ﷺ الأتقى ، والأتقى أبو بكر ، فالأكرم عند الله بعد الرسول أبو بكر .

الثانية : قد تنزل الآيات على أسباب خاصه فتوضع مع ما يناسبها من الآيات العامة رعاية لنظم القرآن وحسن السياق فيكون ذلك الخاص قريبا من صورة السبب فى كونه قطعى الدخول «ومثال ذلك» قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » إلى آخره فانها نزلت فى كعب بن الأشرف ونحوه من علماء اليهود لما قدموا مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشا على قتال رسول الله ﷺ فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود فى دور قريش فتعاقدوا وتعاهدوا ليجتمعن على قتال محمد ، فقال أبو سفيان انك تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى سبيلا ، وأقرب إلى الحق نحن أم محمد ، فقال كعب أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد ، وذلك مع علمه بنعت النبى صلى الله عليه وسلم

المنطبق عليه فى كتابهم ، وأخذ المواثيق عليه وعلى اليهود أن لا يكتموا فكان ذلك أمانة فى أعناقهم لم يؤدوها .

وكان قول كعب ومن معه إن المشركين أهدى سبيلا من محمد خيانة منهم للأمانة التى ائتمنوا عليها فانجر الكلام إلى ذكر جميع الأمانات بقوله تعالى «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» فالآية الأولى خاصة بأمانة مخصوصة وهى صفة رسول الله ﷺ ونعته ، والآية التى بعدها عامة فى كل أمانه والعام تال للخاص فى الرسم متراخ عنه فى النزول، ولا يرد تأخر نزول آية الأمانات عن التى قبلها بنحو ست سنين، لأن الزمان إنما يشترط فى سبب النزول لا فى المناسبة، لأن المقصود منها وضع آية فى موضع يناسبها ، والآيات كانت تنزل على أسبابها ويأمر النبى ﷺ بوضعها فى المواضع التى علم من الله أنها مواضعها « وهذا النوع » وهو الذى ينزل على أسباب خاصة ثم يوضع مع ما يناسبه، مثل ماذكرنا قد اختار فيه ابن السبكى أنه رتبة متوسطة دون السبب وفوق التجرد ، أى أنه أخذ طرفا من النازل على سبب خاص وهو ظاهر وطرفا مما نزل على غير سبب من حيث اندراجه تحت العام وهذا القدر كاف فى بحث الأسباب والله أعلم .

(٥) «انزال القرآن على سبعة أحرف»

هذا البحث من الأبحاث التى كثرت فيها أقوال العلماء وآراؤهم بسبب تفسير معنى الأحرف والمراد بها، وحقيقة العدد وبقاء الأحرف للآن أولا ، وقد ورد النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ بنزول

القرآن على سبعة أحرف ، وتضافرت روايات كثيرة على ذلك ؛ وحكم علماء الحديث بصحة هذه الروايات ، بل قال بعضهم بتواتر الحديث الوارد بنزول القرآن على سبعة أحرف فقد ورد عن جمع كثير من الصحابة ، منهم أبي بن كعب ، وأنس وحذيفة بن اليمان، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسلمان بن صرد ، وابن عباس وابن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب وعمرو بن أبي سلمة، وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبو بكرة ، وأبو جهم ، وأبو سعيد الخدرى ،وأبو طلحة الأنصارى ، وأبو هريرة ، فهؤلاء أحد وعشرون صحابيا ، وقد نص أبو عبيد على تواتره ، وأخرج أبو يعلى فى مسنده ، أن عثمان قال على المنبر أذكر الله رجلا سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، قال إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف ، لما قام ، قال فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا بذلك ، فقال وأنا أشهد معهم

وسنذكر من الروايات ماينيرلنا الطريق فى معرفة سبب النزول على سبعة أحرف وحكمته وبه يتضح المعنى، ويزول الأشكال ، ثم نتبع ذلك بذكر الأقوال،مع بيان الراجح منها،والتنبيه على تزييف ماعداه إن شاء الله والله المستعان .

طرف من الروايات على نزول القرآن على سبعة أحرف

١) روى مسلم عن أبى كعب :«أن النبي ﷺ كان عند أضاة (غدير) بنى غفار فأتاه جبريل عليه السلام فقال إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك

القرآن على حرف : فقال أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لاتطيق ذلك ، ثم أتاه الثانيه فقال إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين ، فقال أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لاتطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك إن تقرىء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال ، أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لاتطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا »

(٢) روى الترمذى عن أبي بن كعب قال : « لقى رسول الله ﷺ جبريل : فقال ياجبريل إنى بعثت إلى أمة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لايقرء كتابا قط فقال لى يامحمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف : قال هذا حديث حسن صحيح »

(٣) روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها ، فكدت أن أعجل عليه ، ثم امهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه ، فجئت به رسول الله ﷺ . فقلت يارسول الله ، إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها ، فقال رسول ﷺ : أرسله ، إقرء ، فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هكذا أنزلت ، ثم قال لى إقرأ ، فقرأت فقال ، هكذا أنزلت : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف »

(٤) روى مسلم عن أبي بن كعب «قال كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه . ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما النبى صلى الله عليه وسلم فقرآ فحسن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما فسقط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية : فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ماقد غشينى ضرب فى صدرى ففضت عرقا وكأنى انظر إلى الله تعالى فرقا : فقال ياأبي : أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هون على أمتى فرد إلى الثانية أن أقرأه على حرفين فرددت إليه أن هون على أمتى : فرد إلى الثالثة أن أقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها « فقلت اللهم أغفر لأمتي وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى فيه الخلق كلهم حتى ابراهيم عليه السلام » وقول أبى رضى الله عنه فسقط فى نفسى معناه إعترتنى حيرة ودهشة ، أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوش عليه حاله ويكدر عليه وقته : فانه عظم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه ، وإلا فأى شيء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات ، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النسخ الذى هو أعظم فكيف بالقراءة ، ولما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ما أصابه من ذلك الخاطر ، نبهه بان ضربه فى صدره فأعقب ذلك بأن انشرح صدره ، وتنور باطنه ، حتى آل به

الكشف والشرح إلى حالة المعاينة : ولما ظهر له قبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى ، وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى اه .

٥) أخرج احمد عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو أن رجلا قرأ آية من القرآن فقال له عمرو إنما هي كذا وكذا ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأى ذلك قرأتم أصبتم : فلا تماروا » إسناده حسن .

٦) روى الطبرى والطبرانى عن زيد بن أرقم « قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقرأنى ابن مسعود سورة، أقرأنيها زيد بن ثابت، وأقرأنيها أبي بن كعب ، فاختلفت قراءاتهم: فبقراءة أيهم آخذ ، فسكت رسول الله ﷺ وعلى الى جنبه : فقال على ليقرأ كل إنسان منكم كما علم فانه حسن جميل »

٧) روى ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود أنه قال « أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة من آل حم فرحت إلى المسجد فقلت لرجل اقرأها : فاذا هو يقرؤ حروفا ما أقرأها : فقال أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فانطلقنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبرناه فتغير وجهه وقال : انما أهلك من قبلكم الاختلاف : ثم أسر الى على شيئا » فقال على ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما علم ، قال فانطلقنا وكل رجل يقرأ حروفا لا يقرؤها صاحبه » ولنقتصر على ما قدمنا من الروايات ، وقد ورد غيرها فى هذا المعنى كثير وبالنظر فى مجموعها يظهر منها الأصول الآتية وهى .

أولا) إن الاقتصار على حرف واحد فى أول الأمر فيه حرج على الأمة، ومشقة عظيمة ؛ فى تلاوة القرآن ،وتدبر معانيه يدل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول عن أبي بن كعب ، ثلاث مرات «أسأل الله معافاته ومغفرته ؛وان أمتى لاتطيق ذلك» وفى الحديث الثانى عنه ايضا « ياجبريل اني بعثت الى امة امية منهم العجوز والشيخ الكبير ، والغلام ؛ والجارية والرجل الذى لايقرأ كتابا قط .

ثانياً) تسهيـــل قراءة القرآن وتدبره بسبب الزيادة الى سبعة أحرف كما يدل عليه مراجعة النبي صلى الله عليه وسلم واستزادته من حرف إلى سبعة أحرف .

ثالثا : تخيير الأمة فى القراء بأى حرف من غير أن يوجب عليهم القراءة بحرف خاس ، بل كل يقرؤ بما يعلمــه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدل على ذلك قوله فى الحديث الأول المذكور «فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا» وقوله فى الحـديث الثالث عن عمر «فاقرأوا ما تيسر منه» وقوله فى الحـديث الخامس المذكور «فأى ذلك قرأتم أصبتم .»

رابعاً : اختلاف قراءة بعض الصحابة رضى الله عنهم ؛ يدل على ذلك حديث عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم ،وحديث أبي بن كعب مع رجل كان يصلى فى المسجد ورجل آخر ، وقد اختلفت قراءاتهم كما فى الحديث الرابع ، وحديث مولى عمرو بن العاص عن عمرو ؛ مع رجل آخر كما فى الحديث الخامس ، وما وقع لعبد الله بن مسعود مع آخرين

كما فى الحديث السادس ، ومع رجل آخر كما فى الحديث السابع .

خامسا : تصويب النبى صلى الله عليه وسلم لقراءة كل وتقريره وأمره لكل أن يقرأ كما علم كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم فى بعض الروايات بالنسبة لقراءة كل من المختلفين « هكذا أنزلت » وبالضرورة كان اختلافهم الذى أقره النبى صلى الله عليه وسلم فى الألفاظ، لا فى المعاني والأحكام ، وإلا كان تناقضا لا يصح اقرار كل عليه وذلك كما لو كانت قراءة أحدهما تفيد حلا وقراءة الآخر تفيد حرمة لشىء واحد وهكذا فلا يتصور الاقرار عليه، هذه هى الأصول التى نأخذها من الروايات السابقة ، وعلى نهجها نعرض الأقوال التى وردت فى معنى الأحرف السبعة فما كان منها موافقاً لهذه الأصول قبل ، وإلا رددناه والله الموفق للصواب .

﴿أقوال العلماء فى الأحرف السبعة والمراد بها﴾

قد ذكر العلماء فى ذلك أقوالا كثيرة ، حتى عدها السيوطى أربعين قولا ، وقد اختلف نظر المؤلفين ، فمن مكثر فى سرد الأقوال ومن مقل ، وقد اقتصر منها القرطبي على خمسة أقوال ، وافق الطبرى على ما اختاره منها ، وسنذكر أشهر الأقوال فى ذلك بعدضم المتشابهات منها إلى بعض فنقول :

أولا : ذهب بعض العلماء إلى أن حديث انزال القرآن على سبعة أحرف مع كثرة رواته مشكل لا يعرف معناه ، وسبب ذلك أن الحرف يصدق لغة على أربعة معان ؛ حرف الهجاء ، والكلمة ،والمعنى

والجهة أى فيكون مشتركا لفظيا ، لا يدرى أى معانيه هو المقصود،
ويرد هذا القول ، بأن مجرد الاشتراك اللفظى لا يلزمه الاشكال ، لأن
ذلك يلزم ، لو لم تقم قرينة تعين بعض المعانى ؛ وهنا قامت قرينة تعين
بعض المعاني : بل قامت قرائن تمنع ما عـدا ذلك البعض من المعانى
الأخر ، وذلك لأنه لا يصح إرادة حرف الهجاء للقرينة الحالية ؛وهى
كونه مركبا من جميع حروف الهجاء لا مجرد سبعة ؛ ولا يصح ارادة
الكلمة أيضا ، لأن كلماته تعد بالآلاف ، ولا يصح إرادة المعنى ، لأن
معانيه أكثر من سبعة بالضرورة ، فلم يبق إلا الجهة ، وإذا قد بطل
القول بالاشكال .

«ثانيا» ذهب بعضهم إلى أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد ؛
بل المراد التيسير والتسهيل ، والسعة على الأمة،ولفظ السبعة، يطلق
ويراد به الكثرة فى الآحاد، كما يطلق السبعون فى العشرات والسبعمائة
فى المئات، ولا يراد العدد المعين

«ورد هذا» بأن كثيرا من الروايات ، يدل على ان المراد حقيقة
العدد وانحصاره فى السبعة ، من ذلك مارواه النسائي عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه قال » إن جبريل وميكائيل أتيانى فقعد جبريل
عن يمينى وميكائيل عن يسارى ؛ فقال جبريل إقرأ القرآن على حـرف
فقال ميكائيل استزده حتى بلغ سبعة أحرف » وفى حديث أبى بكرة
«فنظرت إلى ميكائيل فسكت فعلمت أنه قد انتهت العدة » فلا وجـه
بعد هاتين الروايتين وغيرهما لعدم اعتبار حقيقة العدد، وإذا كان الحديث

غير مشكل ؛ وحقيقة العدد مقصوده ؛ فلنذكر أشهر الأقوال . وفق منهج الأصول التي قدمناها بادئين بالقول المختار الذي يوافق مادلت عليه الروايات السابقة من الأصول ويطابق المعقول والمنقول.

« القول الأول » وهو مااختاره القرطبي والطبري والنيسابوري وغيرهم أن المراد بالأحرف السبعة هي سبع لغات في كلمة واحدة تختلف فيها الألفاظ مع اتفاق المعاني وتقاربها ؛ وعدم اختلافها وتناقضها ، مثل هلم ، وأقبل ، وتعالى ؛ وإلى ، وقصدي ، ونحوي ؛ وقربي ، فان هذه ألفاظ سبعة مختلفة ، يعبر بها عن معنى واحد ؛ هو طلب الاقبال : وليس معنى هذا القول أن كل معنى في القرآن عبر عنه بسبع ألفاظ من سبع لغات : بل المراد أن المعنى الذي تتفق لغات العرب في التعبير عنه بلفظ واحد يعبر عنه بذلك اللفظ فقط ، وأن ما يختلف التعبير عنه بلفظين يعبر عنه بلفظين ؛ وهكذا إلى سبعة ألفاظ فقط ، من مشهور لغات العرب وقت نزول القرآن مثل ما تقدم ومثل « للذين آمنوا انظرونا » : للذين آمنوا أمهلونا ، للذين آمنوا أخرونا ، للذين آمنوا ارقبونا ، فهذه أربعة ألفاظ عبر بها عن معنى واحد ومثل « كلما أضاء لهم مشوا فيه » مروا فيه ، سعوا فيه ، فهذه ثلاثة ألفاظ عبر بها عن معنى واحد ومثل « إن هي إلا صيحة واحدة » إلا زقية واحدة فهذان لفظان عبر بهما عن معنى واحد (وهذا القول) يؤيده الروايات ، فان في حمل جميع قبائل العرب على أخذ القرآن على غير لغاتهم دفعة واحدة وحملهم على النطق بما لم يعتادوا النطق به مشقة عظيمة ، وحرج كبير ؛ كما يدل عليه قوله

صلى الله عليه وسلم : (وان امتى لا تطيق ذلك) وقوله : (ياجبريل إنى بعثت إلى امة أميـة منهم العجوز والشيخ الـكبير والغـلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتابا قط) : فوسـع الله للنـاس فى الحروف لعجزهم عن أخـذ القرآن على غـير لغاتهم ، لما ذكر فى الحـديث : نعم وسع لهم فى اختـلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقـا ، لا اختلاف فيه ولا تناقض ، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب ، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه ، وهو لسان قريش بعد أن صارت لقريش السيادة الدينية والدنيوية معا ، وقدروا بعد ذلك على تحفظ الألفاظ التى هى بلغة قريش ، حتى صاروا يؤثرونها على غيرها ، فلم تعد ثم ضرورة إلى الاستمرار على القراءة بما عدا حرف قريش أى لغتهم ، وبخاصة فانهم كانوا مخيرين فى القراءة بأيها كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « فأى ذلك قرأتم أصبتم » وقوله « فاقرءوا ما تيسر منه » : ولما زالت الضرورة ؛ اختار الامام عثمان رضى الله عنه ، واختاروا معه أحد الأحرف السبعة ، وهو حرف « لغة » قريش لأنه هو الحرف الذى عليه جميع العرب بعد ذلك ، فكان ذلك اجماعا من الصحابه والأمة إذا وجبت عليها أمور على التخيير فلها أن تختار واحدا منهـا وتترك ماعداه ، كما أن للامام أن يختار كذلك ، وقد تركت الصحابه الأحرف الستة الباقية ، ولم تنقلها محافظة على وحدة الأمة فى قراءة القرآن ، ودرءا للاختلاف فى القرآن ، ودفعا للمراء فيه ، الذى عـده النبى ﷺ كفرا « ويؤيد هذا القول » خلاف ماذكرنا : ماتقدم من اختـلاف

الصحابة فى القراءة وتصويب النبي صلى الله عليه وسلم لكل منهم ؛ فانه ليس من المعقول أن يكون اختلافهم فى المعنى وإلا لزم الجمع بين النقيضين ؛ إذا كان أحدهما أمرا ، والآخر نهيا مثلا ، فتعين أن يكون اختلافهم فى اللفظ مع الاتفاق فى المعنى ، بأن يعبر عنه أحدهما بلفظ ، ويعبر عنه الآخر بلفظ آخر وهكذا ، وهذه الألفاظ المختلفة مع الاتفاق فى المعنى كلها منزلة من عند الله ؛ وكل سمع ما قرأ به من رسول الله صلى الله عليه وسلم : بدليل قوله « هكذا أنزلت » فلم تقع الاباحة فى قوله عليه الصلاة والسلام « فاقرءوا ما تيسر منه » بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة ، من بعض اللغات ، جعلها من تلقاء نفسه ، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن ولكان معرضا أن يبدله كل من أراد ، حتى يكون غير الذى نزل من عند الله : قد وقعت الاباحة للنبي صلى الله عليه وسلم ليوسع بها على أمته كما قدمنا ، فهو صلى الله عليه وسلم الذى أقرأ مرة لأبي بما قرأه عليه جبريل ، ومرة لابن مسعود بما قرأه عليه جبريل أيضا وهكذا بالنسبة لقراءة عمر بن الخطاب وقراءة هشام بن حكيم لها ؛ ولو لم يكن الامر كذلك لما استقام قول النبي ﷺ عند الاختلاف فى القراءة «هكذا انزلت» «أو هكذا أقرأني جبريل» وأيضا لو كان لأحد من الناس أن يغير ما يشاء ويضع ما يريد لبطل قوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون وحمل الحرف على اللغة مطابق لمعنى الجهة

﴿ عرض هذا القول على الأصول السابقة ﴾

يعرض هذا القول عليها نجد

أولا) أن حمل القبائل المختلفة فى أول الأمر على القراءة بحرف واحد أى لغة واحدة فيه حرج ومشقة .

ثانيا) أن فى إنزال المعنى الواحد على سبع لغات توسعة وتيسيرا

ثالثا) كان المسلمون مخيرين فى القراءة بأى لغة يسمعونها من رسول الله صلى الله عليه وسلم

رابعا) ترتب على ذلك اختلافهم فى القراءة ، وأخذ بعضهم بعضا إلى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك قبل أن يعلموا أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم ما كان يبلغ السبعة لكل أحد ؛ بل يبلغ كلا ما يناسبه ، ويسهل عليه النطق به ولهذا بعد أن علموا أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، أى لغات واشتهر ذلك بين الصحابة ، لم يعد أحدهم ينكر على الآخر قراءته .

خامسا) تصويب النبى صلى الله وسلم لقراءة كل دليل على أن الخلاف بينهم كان فى الألفاظ فقط لأن كل واحد كان يعبر عن المعنى بلفظ من لغته قد سمعه منه صلى الله عليه وسلم غير لفظ الآخر الذى سمعه

وبهذا قد ثبت أن القول بأن الأحرف السبعة المراد بها لغات سبع ، من لغات العرب المشهورة فى كلمة واحدة ، ومعنى واحد ؛ على نحو ما تقدم ، هو الموافق للروايات السابقه وغيرها ؛ والمطابق لمنهج الأصول التى فهمت منها ، ولنذكر ما ورد على هذا القول والجواب عنه

ملخصا وموضحا من الطبرى وغيره (١) «فان قال قائل» فى أى موضع من كتاب الله ، نجد حرفا واحدا مقروءا بسبع لغات مختلفات الألفاظ متفقات المعنى ، حتى يصح تأويل الأحرف السبعة باللغات السبع »

«يرد على ذلك » باننا لم ندع أن ذلك موجود اليوم ، وإنما قلنا ان هذا معنى قول النبى ﷺ « أنزل القرآن على سبعة أحرف » لما بينا من الأسباب

(٢) « وإن قيل » أين ذهبت الأحرف الستة ولم لم تكن موجودة ، مع أن رسول الله ﷺ قد أقرأهن أصحابه وأمرهم بقراءتها وأنزلهن الله من عنده على نبيه ﷺ ، أنسخت هذه الأحرف الستة فرفعت ، وما الدليل على نسخها ورفعها ، أم نسيتهن الأمة ، فتكون قد ضيعت ما أمرت بحفظه ، أم ما القضية فى ذلك ؛

(يرد ذلك) بأن الاحرف الستة الباقية ، لم تنسخ ولم ترفع . ولم تضيعها الأمة ، وإنما الأمة أمرت بحفظ القرآن ، وخيرت فى حفظه بأى الأحرف السبعة جاءت ، كما أمرت اذا حنثت فى اليمين وهى موسرة ، أن تكفر بأى الكفارات الثلاث جاءت . إما بعتق أو اطعام ، أو كسوة ، فلو أجمع جميعها على التكفير بواحدة من الكفارات الثلاث ، كانت مطيعة حكم الله ، مؤدية فى ذلك الواجب عليها من حق الله ، فكذلك الامة أمرت بحفظ القرآن وقراءته ، وخيرت فى قراءته بأى الأحرف السبعة جاءت ، ولعلة من العلل ،

« وهى خوف الاختلاف والتنازع والمماراة فى القرآن» مع زوال الحاجة إلى تعدد الحروف « اللغات » ومع انتشار أحد الأحرف السبعة الذى هو لغة قريش ، بين قبائل العرب ، وسهولته عليهم جميعا ؛ رأت الأمة لذلك كله ، الثبات على حرف واحد ، ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية ؛ وقد بينت الأخبار والآثار ، العلة التى أوجبت على الأمة الثبات على حرف واحد ، ورفض ماعداه من الأحرف الستة فقد ثبت عند رواة الأخبار « أنه اجتمع فى غزوة اذربيجان وأرمينية ، أهل الشام وأهل العراق ، فتذاكروا القرآن واختلفوا فيه ، حتى كادت يكون بينهم فتنة ، فركب حذيفة بن اليمان ؛ لما رأى اختلافهم فى القرآن ، إلى عثمان ، فقال إن الناس قد اختلفوا فى القرآن ، حتى إنى والله لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف : ففزع عثمان لذلك فزعا شديداً ، فأرسل إلى حفصة فاستخرج الصحف التى كان أبو بكر أمر زيدا بجمعها ، فنسخ منها مصاحف ، وبعث بها إلى الآفاق وعزم على كل من عنده مصحف مخالف للمصحف الذى جمعهم عليه أن يحرقه ، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة . ورأت فيما فعل من ذلك الرشد والهداية ، فتركت القراءة بالأحرف الستة ، التى عزم عليها امامها العادل ، فى تركها طاعة منها له : ونظراً لأنفسها : ولمن بعدها من سائر الأمة ؛ حتى درست من الأمه معرفتها ، وتعفت آثارها ، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها ، لدثورها وعفو آثارها . وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها ، من غير جحود منها لصحتها ، وصحة

شيء منها ، ولكنها نظرت لمصلحتها : من دفع الاختلاف والتنازع في القرآن ، بين المسلمين ، فلا قراءة اليوم لأحد من أهل الاسلام : إلا بالحرف الواحد الذى اختاره لهم إمامهم : الشفيق الناصح ، دون غيره من الأحرف الستة الأخرى ، التى تركت القراءة بها

(٣) « قد يقال » : كيف جاز للصحابة وللأمة ترك قراءة اقرأهم إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهم بها « ويجاب » بأن أمرهم بها لم يكن أمر إيجاب ، بكل منها على التعيين بل كان أمر تخيير بينها فليس الواجب كل حرف منها ، بل الواجب واحد منها ، وهو ما يستطيع كل واحد من المكلفين النطق به : فلم يكن الواجب عليهم نقل جميع الأحرف السبعة ، بل الواجب نقل الحرف الذى اجمعوا على قراءته ، وترك غيره رعاية للمصلحة . ولو لم يفعلوا ذلك لكانوا إلى الجناية على الاسلام ، أقرب منهم إلى السلامة من ذلك ، ولكن الله وفق الأمة وهداها إلى الصواب

(٤) « فان قال قائل » ماهى اللغات الست الباقية ومن أى الألسن كانت « يرد عليه » بأنه لاحاجة بنا إلى معرفتها ، بل الواجب ترك معرفتها ، ولو عرفناها لم نقرأ بها ، للأسباب التى بيناها ،

وقد قيل أن خمسة منها لعجز هوازن ، واثنين لقريش وخزاعة ، والعجز من هوازن سعد بن بكر ، وخيثم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف وهذا القول مروى عن ابن عباس ، ولكن فى روايته قتادة عنه مع أن قتادة لم يلق ابن عباس ولم يسمع منه ، وكل ماقيل فى اللغات الست لم يثبت من طريق صحيح .

٥) « قد يقال » إذا كانت الحروف السبعة لغات سبعا ، فكيف اختلف قراءة عمر ، وهشام بن حكيم ، مع أنهما قرشيان ، ولغتهما واحدة « ويجاب » بأنه لا مانع من اختلافهما ، لجواز أن يكون احدهما عارفا بغير لغة قريش وقد سمع النبي ﷺ وهو يقرأ بغير لغة قريش فحفظها كما سمعها الناس ، وأن يكون الآخر قد سمع لغة قريش فحفظها ، فاختلفت قراءتهما وكون المرء يعرف غير لغته الأصلية ويحفظ ما يسمعه من ذلك الغير مشاهد معروف

٦) « وربما قيل » كيف يلتئم قولك إن القرآن نزل بسبع لغات المعبر عنها بالحروف ، مع قول عثمان رضى الله عنه « نزل القرآن بلغة قريش » « فيجاب » بأن قول عثمان محمول على ابتداء نزوله ، وهو الحرف الأول ، الذى طلب النبى صلى الله عليه وسلم الزيادة عليه ، وقد استقر الأمر بعد زوال الضرورة على ذلك الحرف ، الذى هو لغة قريش ، وعلى ذلك فلا تنافى بين حمل الأحرف على اللغات ، وبين قول عثمان المذكور .

٧) « فان قال قائل » كيف تدعى أن الحرف الذى استقر عليه الأمر أخيرا هو لغة قريش ، فحسب ، مع أن فى القرآن كثيرا من الكلمات من غير لغة قريش « مثل عتى حين » بلغة الهذلى ، ومثل « تعلمون » بكسر التاء بلغة الأسدى « يرد عليه » بأن ما ورد من ذلك وإن كان فى الأصل من غير لغة قريش ، لكنه مستعمل عند قريش ومعروف عندهم ، أو أنه مما توافق فيه لغة قريش وغيرها إلا أنه مشهور عند غيرها ، وذلك مثل الكلمات التى قيل إنها فى الأصل ليست

عربية ، مثل مشكاه ، وقسطاس ، وغيرها فانهم قالوا صارت عربية بالاستعمال ، أو أنها أيضا من وضع العرب ، وهى مما تفقت فيه اللغات فلم يكن ذلك منافيا لكون القرآن عربيا مبينا ، فكذلك وجود كلمات ينطق بها الهذلى ، أو الاسدى أو غيرها لا ينافى كونها قرشية بالاستعمال أو بالوضع ، واتفقت فيه مع غيرها

وقد أطلنا فى ذكر ما يرد على هذا الرأى من الاشكالات وردها بعد تطبيقه على منهج الروايات السابقة حتى ظهر أنه الرأى المختار ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

(القول الثانى) أن الأحرف السبعة هى لغات سبع متفرقة فى القرآن كله من لغات أحياء من قبائل العرب ، ومعنى هذا القول أن بعض معانيه عبر عنه بلفظ من لغة احدى القبائل العربية المشهورة والآخر عبر عنه بلفظ من لغة قبيلة ثانيه وهكذا ، إلى سبع فيكون المنزل لفظا واحدا من لغة واحدة لمعنى واحد ، يعنى أنها لغات فى القرآن ، على لغات العرب كلها ، يمنها ونزارها ، لأن رسول الله ﷺ لم يجهل شيئا منها ، وكان قد أوتي جوامع الكلم ، وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبع لغات ، كالقول الأول ، بل هذه اللغات السبع ، متفرقة فى القرآن كله ، فبعضه بلغه قريش ، وبعضه بلغه هذيل ، وبعضه بلغه هوازن ، وبعضه بلغة اليمن ، وهكذا ، وإلى هذا القول ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام ، وثعلب ، وأبو حاتم السجستانى وقال الأزهري فى التهذيب إنه المختار ، واختاره

ابن عطية أيضا ، حيث قال : معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « أنزل القرآن على سبعة أحرف أي فيه عبارة سبع قبائل بلغـــة جملتها نزل القرآن ، فيعبر عن المعنى فيه تارة بعبارة قريش ، ومرة بعبارة هذيل ، ومرة بغير ذلك ، بحسب الأفصح والأوجز في اللفظ ، ألا ترى أن فطر معناه عند قريش ابتدأ ، فجاءت في القرآن فلم تتجه لابن عباس ، حتى اختصم اليه أعرابيان في بئر ، فقال أحدهما « أنا فطرتها » فقال ابن عباس ففهمت حينئذ معنى قوله تعالى « فاطر السماوات والأرض » وقال أيضا ما كنت أدري معنى قوله تعالى « ربنا افتـــح بيننا وبين قومنـــا بالحق » حتى سمعت بنت ذي يزن ، تقول لزوجها تعالى ، أفاتحك ، أي أحاكمك : وكذلك قول عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى « أو يأخذهم على تخوف » أي على تنقص لهم وغير ذلك ، « ولا يرد على هذا » قول عثمان رضي الله عنـــه ، حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغـــة قريش ، فانه نزل بلغتهم فانه يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن نزل بأسره بلغـــة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف ، وهي خلاف لغة قريش ، وقد قال تعالى « إنا جعلناه قرآنا عربيا » ولم يقل قرشيا وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول إنه أراد قرشيا من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول أراد لغة عدنان ، دون قحطان ، أو ربيعة دون مضر ، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل ، تناولا واحدا إه ملخصا من القرطبي وغيره مع تصرف وإيضاح ،

«وهذا القول الثاني» قول من لم يمعن النظر ، ولا يلتبس خطؤه على من نظر فى الروايات السابقة ، ولنبطل ما استند اليه مختاروا هذا القول ، ثم نتبعه ببيان مخالفته للروايات ، فنقول :

(أولا) ما استندوا اليه من عدم فهم ابن عباس . وعمر ، وغيرهما لمعنى بعض كلمات حتى سمعوها من غيرهم لا يفيدهم لأنه ليس بلازم أن يحيط المرء بكل معانى لغته أو بألفاظها ، بل قالوا أن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم ، كيف وقد قررنا أن فى القرآن الفاظا كثيرة بحسب أصلها ليست عربية صارت عربية بالاستعمال أو بموافقة الوضع ، وكذا يقال بالنسبة لغير القرشى منها ، فمن الجائز جداً أن تكون بعض الألفاظ ليست كثيرة الاستعمال عند قريش غير معلومة لبعضهم وان كانت قرشية .

(ثانيا) إن كون القرآن بلغة قريش لأينا فى كونه عربيا لأننا قررنا فيما سبق ، أن فيه الفاظا كثيرة ، من لغات قبائل غير قريش لكنها غير مستعملة ومعروفة عند قريش ، أو هى مما وضعتها قريش أيضا ، فتكون مما توافقت فيه القبائل ، كالذى توافقت فيه اللغات ، وعلى هذا فلا تنافى بين قول عثمان ، وبين كونه قرآنا عربيا ، أو أن قول عثمان ، محمول على الحرف الذى نزل ابتداء كما قررنا .

«ثالثا» هذا القول بعيد كل البعد عن الروايات السابقة وبيان ذلك اننا اذا عرضناه على تلك الروايات وما أخذ منها من الأصول لوجدنا بينه وبينها بونا شاسعا لأنه يقتضى ان القرآن أبعاض كل بعض

بلغة وذلك لا يتأتى به رفع الحرج والمشقة لأنه يلزمه أن كل شخص لا يقرأ الا البعض الذى نزل بلغته دون غيره من القرآن ، ويلزمه أن لا تكون هناك فائدة للتخيير لأن كلا ملزم بأن يقرأ ما نزل باللغة التى يعرفها دون غيره ، ويلزم هذا القول أيضا بطلان الاخبار التى وردت عن عمر بن الخطاب، وهشام بن حكيم، وأبى بن كعب، وعبد الله ابن مسعود، من انهم اختلفوا فى قراءة سور من القرآن واختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر كلا أن يقرأ كما علم ولو كانت الأحرف السبعة لغات متفرقة لكان كل تال إنما يتلو الكلمة تلاوة واحدة ولا يتأتي فيها اختلاف ويلزم ذلك أنه لا وجه لاختلاف من نقل عنهم الاختلاف ولم يكن هناك معنى لأمر النبى صلى الله عليه وسلم كل قارىء منهم أن يقرأ كما علم وكيف يتأتى أن يكون اختلاف والمعلم واحد والعلم واحد واذا كان هذا القول يلزمه ذلك كله وقد ثبتت صحة الروايات السابقة فدل ذلك أبين الدلالة على فساد القول بأن الأحرف السبعة لغات سبع متفرقة فى سور القرآن لا أنها لغات مختلفة فى كلمة واحدة مع كون المعنى واحدا كما هو مقتضى ما أسلفنامن الروايات

ومثل القول الثاني فى البطلان قول من قال « أن المراد بالاحرف السبعة (لغات) سبع لقبائل مضر متفرقة فى القرآن فمنها لقريش ، ومنها لكنانة ، ومنها لأسد ، ومنها لهذيل ، ومنها لتيم ، ومنها لضبه ومنها لقيس ، وهذا القول باطل بما أبطلنا به القول الثانى ويبطل هذا أيضا بأن فى قبائل مضر شواذ ينزه عنها القرآن مثل كشكشة قيس

الذين يجعلون كاف المؤنث شـيباً فيقولون فى « جعل ربك تحتك سريا » « جعل ربش تحتش »ومثل تمتمة تميم الذين يجعلون السين تاء فيقولون فى الناس (النات) وهذه لغات ينزه عنها القرآن ولا يحفظ فيه منهـا شىءعن السلف ، ولم نفرد هذا القول بالذكر لمشاركته لما قبله فى أوجه بطلانه

(القول الثالث) أن المراد بالأحرف السبعة الأوجه التى يقع بها الاختلاف فى القراءة ، ولننقل ثلاث عبارات متقاربة فى هذا المعنى

(قال) ابن قتيبه ومن نحا نحوه فى بيانهـا ، الأوجه التى يقع بها ذلك سبعة

(أولها) ما تتغير حركته ولايزول معناه ولاصورته مثل « ولا يضار كاتب » بالرفع والفتح

«ثانيها» مايتغير بالفعل مثل « باعد وباعد» بلفظ الماضى والطلب

(ثالثها) مايتغـير باللفظ مثل « ننشزها وننشرها»

(رابعها مايتغـير بابدال حرف قريب المخرج مثل « طلع منضود وطلح منضـود»

(خامسها)مايتغير بالتقديم والتأخير مثل «وجاءت سكرة الموت بالحق وجاءت سكرة الحق بالموت »

(وسادسها) مايتغير بزيادة أو نقصـان مثل (والذكر والانثى وما خلق الذكر والانثى)

سابعها:مايتغير بابدال كلمة بأخرى مثل كالعهن المنفوش وكالصوف المنفوش

وقال القرطبي في بيانها حكاية عن القاضي ابن الطيب قال: تدبرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعا

أولا : منها ماتتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل (هن أطهر لكم وأطهر) ؛ ويضيق صدري ويضيق)

ثانيا : ومنها مالا تتغير صورته ولا يتغير معناه بالأعراب مثل (ربنا باعد بين أسفارنا وباعد)

ثالثها: ومنها ماتبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف مثل قوله (ننشرها وننشزها)

رابعا : ومنها ماتتغير صورته ويبقى معناه مثل (كالعهن المنفوش وكالصوف المنفوش)

خامسا : ومنها ما تتغير صورته ومعناه مثل وطلع منضـــود وطلح منضود

سادسا : ومنها بالتقديم والتأخير مثل «وجاءت سكرة الموت بالحق وجاءت سكرت الحق بالموت »

سابعا : ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله (تسع وتسعون نعجة أنـــثى »

وقال ابن الجزري في بيان الأوجه التي بها اختـــلاف القراءة ؛ تتبعت القراءات صحيحها وشاذها وضعيفها ومنكرها فاذا هي ترجـع الى سبعة أوجه من الاختلاف لا تخرج عنها ، وذلك «اماه بتغـيير

فى الحركات بلا تغير فى المعنى والصورة نحو البخل : وبحسب بوجهين وإما : بتغير فى المعنى فقط نحـو : فتلقى آدم من ربه كلمات . وإما فى الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو . تبلو وتتلو . وعكس ذلك نحو . الصراط والسراط . أو بتغيرهما . نحو . فامضوا فاسعـوا وأما فى التقديم والتأخير . نحـو . فيقتلون ويقتلون . أو فى الزيادة والنقصان . نحو . أوصى ووصى . فهذه سبعة أوجه لا يخرج الأختلاف عنها ، قال وأما نحو اختـلاف الأظهار والادغام والـروم والاشمام والتخفيف والتسهيل والنقل والابدال فهذا ليس من الاختـلاف الذى يتنوع فى اللفظ أو المعنى لأن هذه الصفات المتنوعة فى أدائه لا تخرجـه عن كونه لفظا واحدا أه :

وهذا القول مع اختلاف قائليه فى بيانه لم يذكر واحد منهـم له دليلا إلا أنه تتبع وجوه الاختلاف فى القراءة فوجدها لاتخرج عن سبع وهذا لايصح دليلا لأى واحد على أن المراد بالأحرف السبعة الوجوه التى تختلف فيها القـراءة (وأيضا هـو مردود بما يأتى)

(أولا ان طريق تتبع ابن الجزرى مخالف لطريق تتبع ابن قتيبة وابن الطيب وهذا يدل على أنه يمكن الزيادة على سبع فابن الجزرى جعل ماتتغير حركته قسمين وجعل ماتتغير حروفه ثلاثة أقسام وبذا يكون الحصر فى سبع غير مجزوم به ولا متعين فهو مبنى على الظن والتخمين بل جعل غيرهم وجوه الاختلاف غير ماتقدم مثل ما قال أبو الفضل الرازى من أنها اختلاف الاسمـاء فى الأفراد والتثنية والتذكير والتأنيث

واختلاف تصريف الأفعال ووجوه الاعراب والنقط والزيادة والابدال وغير ذلك

ثانيا : انك قد علمت مما سبق أن الزيادة إلى سبعة أحرف كان الغرض منها الرخصة وأكثر الأمة يومئذ أمى لا يكتب ولا يعرف الرسم وإنما كانوا يعرفون الحروف ومخارجها فحسب والرخصة ليست ظاهرة فى قراءة الفعل المبنى للمجهول أو للمعلوم أو فى ابدال حركة بأخرى أو حرف بآخر أو تقديم وتأخير فان القراءة بأحدها دون الآخر لا توجب مشقة يسأل النبى ﷺ المعافاة منها وأن الأمة لا تطيق ذلك ويطلب التيسير على الأمة بابدال حرف أو تغيير فعل من المضى إلى الأمر أو من البناء للمعلوم للبناء للمجهول ، هذا لا تفيده الروايات السابقة ولا تدل عليه

ثالثا : إنه لا يتصور وجود أوجه الخلاف فى القراءة المذكورة جميعا فى كلمة واحدة حتى يكون ذلك تيسيرا وتخييرا كما تقدم وان أرادوا أن ذلك متفرق فى القرآن جميعه كالقائل باللغات السبع المتفرقة فى القرآن لم يكن ثمت رخصة ولا اختلاف بين الصحابة ؛ فهذا القول فضلا عن انه لم يستند إلى دليل ، باطل بما ذكرنا من الأوجه

القول الرابع : أن المراد بالأحرف السبعة سبعة أنواع كل نوع منها جزء من أجزاء القرآن وقد اختلف القائلون به فى تعيين السبعة فقيل : هى أمر ونهى ووعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال وقيل : أمر ونهى وحلال وحرام ومتشابه ومحكم ومتشابه وأمثال وقيل : محكم

ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص وقيل :غير ذلك وهذا القول على اختلاف قائليه فى العدد ليس له مستند وكل قال ماقال بحسب التخمين وهو مردود من وجهين

أولهما ان هذه الاوجه لا يمكن أن يقع فيها التوسعة على الامة والتيسير لان التوسعة لم تقع فى تحليل حرام ولا فى تحريم حلال ولا فى تغيير شىء من المعانى المذكورة

ثانيهما : لو كان المراد بالأحرف ماذكر فى هذا القول للزم أن يكون صلى الله عليه وسلم قد أقر كلا من المختلفين فى المعاني على ماقرأ ولو كان أحدهم قرأ أمراً أو حلالا والآخر قرأ نهياً أو حراما وذلك جمع بين النقيضين ولا يخفى عليك أن الشىء الواحد لا يكون حراما وحلالا فى حالة واحدة وأيضا يلزمه جواز إبدال آية امثال بآية أحكام مثلا مع أن ذلك لا يجوز بحال من الأحوال وبهذا ثبت بطلان هذا القول أيضا وهذه الاقوال الأربعة أشهر ما قيل فى معنى حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف وقد اشتملت على اكثر من أربعة والقول الاول المختار وهو أن المراد بالاحرف السبعة اللغات السبع على الوجه الذى بيناه سابقاً ؛ فاشدد عليه يديك والحمد لله رب العالمين وإنما أعرضنا عن ذكر باقى الاقوال لما قاله السيوطى فى الاتقان بعد أن ذكر خمسة وثلاثين قولا ونصه : قال ابن حبان فهذه خمسة وثلاثون قولا لأهل العلم واللغة فى معنى انزال القرآن على سبعة أحرف وهى أقاويل يشبه بعضها بعضا وكلها محتملة ويحتمل غيرها ، وقال المرسى هذه الوجوه أكثرها متداخلة

ولا أدرى مستندها ولاعمن نقلت ، ولاأدرى لم خص كل واحد منهم هذه الأحرف السبعه بما ذكر مع أن كلها موجودة فى القرآن ، فلا أدرى معنى التخصيص ، ومنها أشياء لا أفهم معناها على الحقيقة ؛ وأكثرها معارضة حديث عمر وهشام بن حكيم الذى فى الصحيح ؛ فانهما لم يختلفا فى تفسيره ولا أحكامه وانما اختلفا فى قراءة حروفه ؛ وقد ظن كثير من العوام أن المراد بها القراءات السبع وهو جهل قبيح اه ومنه يعلم أنه لايصح القول بأن الاحرف السبعة هى القراءات السبعة المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء : لأنهم كانوا فى القرن الثاني والرواية عنهم أكثر من سبع فلا يعقل ان الحديث يشير الى قراآتهم

قال القرطبى (وقد قيل) ان المراد بقوله عليه الصلاة والسلام (أنزل القرآن على سبعة أحرف) القراءات السبع التى قرأ بها القراء السبع لأنها كلها صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس بشيء لظهور بطلانه على ما يأتى ، ثم قال : «فصل» قال كثير من علمائنا كالداودى وابن أبى صفرة وغيرهما هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هى الأحرف السبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها وإنما هى راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف ذكره ابن النحاس وغيره وهذه القراءات المشهورة وهى اختيارات أولئك الأئمة القراء الى أن قال ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوغه وجوزه

وسيأتى لذلك زيادة بيان فى بحث القراءة والقراء إن شاء الله ولنقتصر فى هذا البحث على ما ذكرنا فان فيه الكفاية والله أعلم

٦ « المكى والمدنى »

العمدة فى معرفة المكى والمدنى إنما هو حفظ الصحابة والتابعين والنقل الصحيح عنهم ولم يرد فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم قول ومن كان له عناية شديدة بهذا النوع عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقد أخرج البخارى عنه أنه قال « والله الذى لا اله غيره ما نزلت سورة من كتاب إلا وأنا أعلم أين نزلت ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم انزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه »

وفائدة معرفة المكى والمدنى وترتيب ذلك فى النزول معرفة الناسخ والمنسوخ من أحكام القرآن التى وقع فيها النسخ نعم قد وقع خلاف فى بعض السور هل هى مكية أو مدنية إلا أن ذلك مع قلته قد وقع فى السور التى ليس فيها ناسخ ولا منسوخ على أن الخلاف فى بعض ذلك لا يعتد به

الاصطلاحات فى بيان المكى و المدنى

أولها : المكى ما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ، والمدنى ما نزل عليه بالمدينة وهذا الاصطلاح لوحظ فيه المكان ، وعليه تثبت الواسطة فما نزل عليه بالأسفار لا يسمى مكيا ولا مدنيا وذلك مثل ما نزل

بتبوك ويدخل فى مكة ضواحيها كالمنزل عليه بمنى وعرفات والحديبية ويدخل فى المدينة أيضا ضواحيها كالمنزل عليه ببدر وأحد وعلى ذلك ما نزل بمكة بعد الهجرة يسمى مكيا

«ثانيها» المكى ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة ؛

وعليه يحمل قول من قال ، ما كان فى القرآن من يا أيها الناس فهو مكى ، وما كان فيه من يا أيها الذين آمنوا فهو مدني لأن أهل مكة كان الغالب فيهم الكفر فخوطبوا بيا أيها الناس ، وإن كان غيرهم داخلا فيهم وأهل المدينة الغالب فيهم الايمان فخوطبوا بيا أيها الذين آمنو ؛ وإن كان غيرهم داخلا فيهم ، وهذا الاصطلاح قد لوحظ فيه المخاطب ؛

«ثالثها» المكى ما نزل قبل الهجرة وإن كان نزوله بغير مكة ، (والمدنى) ما نزل بعد الهجرة وإن نزل بغير المدينة . وهذا الاصطلاح لوحظ فيه الزمان وعليه فقوله تعالى (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) مدنى وان كان نزوله بمكة فى حجة الوداع بمنى يوم النحر فان نزول هذه الآية هناك لا يخرجها عن المدنى فى الاصطلاح لأن ما نزل بعد الهجرة مدنى سواء نزل بالمدينة أو بغيرها وكذلك قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها) فانه نزل بمكة بعد الهجرة عام الفتح وعليه فهو مدني بحسب هذا الاصطلاح

وهذا الاصطلاح هو المشهور بين العلماء لأنه اصطلاح ضابط حاصر للأقسام مطرد بخلاف الأول والثانى فان الأول غير ضابط

ولا حاضر لما يلزمه من الواسطة والواسطة يلزمها تعدد الأمكنة والأزمنة مثل ما نزل بتبوك وما نزل ببيت المقدس وما نزل فى الغزوات وغير ذلك فلا تكون القسمة ثنائية « والثاني » غير مطرد لأنه منقوض بسورة البقرة وفيها ياأيها الناس وهى مدنيه لا مكيه وبسورة الحج فهى مكية وفيها (ياأيها الذين آمنوا اركعوا) وبسورة النساء فانها مدنية مع كونها مفتتحة بياأيها الناس قال القاضى إن كان الرجوع فى هذا إلى النقل فسلم وإن السبب فيه حصول المؤمنين بالمدينة على الكثرة دون مكة فضعيف ، إذ يجوز خطاب المؤمنين بصفتهم وباسمهم وجنسهم ، ويؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها والازدياد منها وعلى هذا فكل من الاصطلاحين الأولين لا عبرة به والمشهور الثالث .

وعلى ذلك فما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر الهجرة مكى وما نزل فى السفر بعد الهجرة مدنى ومن ذلك سورة الفتح فانها نزلت عليه صلى الله عليه وسلم فى بعض اسفاره وآية (اليوم أكملت لكم ! دينكم الخ) فانها نزلت بعرفة يوم الجمعة فى حجة الوداع

«وآية» «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» فانها نزلت يوم الفتح فى جوف الكعبة «وآية» ياأيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن » فانها نزلت بأسفل الحديبية « وأول الأنفال نزل ببدر « وآية » لو كان عرضا قريبا » نزلت فى غزوة تبوك فكل

ذلك وغيره مما نزل بالسفر بعد الهجـــرة مدنى وإن لم يـكن نزوله بالمدينة وهذا مقتضى الاصطلاح الثالث المشهور ،

وقد ذكر العلماء فى المكى والمدنى من السور أقوالا كثيرة والذى نقله السيوطى عن أبى الحسن بن الحصار ،

أن السور المدنية باتفاق عشرون سورة ،وأن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة،وما عدا ذلك مكى باتفاق فأما السور المدنية باتفاق فهى « سورة البقرة ، وآل عمران والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة والحشر ، والممتحنة ، والجمعة ، والمنافقون ، والطلاق ، والتحريم ، والنصر » وأما المختلف فى كونها مكية أو مدنية فهى « سورة الفاتحه والرعد ، والرحمن ، والصف ، والتغابن ، والتطفيف والقدر ، ولم يكن واذا زلزلت ، والأخلاص ، والمعوذتين » وأما المكى باتفاق فهو ماعدا ذلك وهو اثنتان وثمانون سورة » ذكر بعض سور مكية فيها آيات مدنية وبالعكس »

« كثير من السور المكيه » فيها آيات مدنية ، فقد ورد أنه إذا نزلت فاتحة سوره بمكة ، مثلا كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها مايشاء « مثال ذلك آية « ويسألونك عن الروح » من الاسراء نزلت بالمدينة مع كون السورة مكيه

ومن ذلك سورة الأعراف مكية إلا آية « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر » فإنها مدنية ومن ذلك سورة إبراهيم مكية غير

آيتين مدنيتين « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا الى فبئس القرار » وبعض السور مدنيه » وفيها آيات مكية فمن ذلك سورة الانفال فانها مدنية وقد استثنى منها آية «وإذ يمكر بك الذين كفروا» فقد قيل إنها نزلت بمكة ومن ذلك سورة الحج قد قال قتاده إنها مدنية إلا أربع آيات (وما أرسلنا من قبلك من رسول الى عقيم) وقد تتبع العلماء ذكر الروايات فى المكى والمدنى سورا وآيات كما عنوا بالليلى والنهارى ، والصيفى ، والسفرى ، والحضرى ، والسمائى والأرضى ، وغير ذلك أى ما نزل من القرآن ليلا أو نهارا ، صيفا او شتاءا ، سفرا أو حضرا ، فى السماء يعنى ليلة الاسراء أو فى الأرض وقد اكثروا من الروايات الصحيحة والسقيمة وغرضنا هنا لا يتعلق بتفصيل ذلك كله ولنذكر الطرق والضوابط التى يعرف بها كل من المكى والمدني

﴿ الطرق والضوابط التى يعرف بها كل من المكى والمدنى ﴾

لمعرفة المكى والمدني طريقان

« أولهما » سماعى وهو النقل الصحيح عن الصحابة أو التابعين بأن سورة كذا أو آية كذا نزلت بمكة أو بالمدينة أو نزلت قبل الهجرة أو بعدها سفرا أو حضرا وغير ذلك

« ثانيهما » قياسى وهو ضوابط كلية لمعرفة كل منهما .

ضوابط المكى

«١» كل سورة فيها (كلا) مكية وقد وردت فى القرآن ثلاثا وثلاثين مرة فى خمس عشرة سورة كلها فى النصف الأخير من القرآن وليس

فى النصف الأول منها شىء قال الدرينى رحمه الله « وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن ولم تأت فى القرآن فى نصفه الأعلى ، وحكمة ذلك أن نصفه الأخير نزل أكثره بمكة وأكثر أهلها جبابرة فتكررت كلا على وجه التهديد والتعنيف لهم والانكار عليهم .

٢» كل سورة فى أولها حرف المعجم مكية سوى البقرة وآل عمران فانهما مدنيتان باجماع وفى الرعد خلاف

٣» كل سورة فيها قصة آدم وابليس مكية سوى البقرة .

٤» كل سورة فيها قصص الانبياء والسابقين والأمم الخالية مكية سوى البقرة أيضا

٥» كل سورة فيها يأيها الناس وليس فيها يأيها الذين آمنوا مكية وفى الحج خلاف

٦» كل سورة فيها سجدة مكية

« ضوابط المدني »

١» كل سورة فيها ذكر الحدود والفرائض مدنية

٢» كل سورة فيها ذكر المنافقين مدنية سوى العنكبوت

٣» كل آية فيها أمر بالقتال وأحكامه مدنية

﴿ ما امتاز به كل من المكى والمدني ﴾

قد امتاز كل من القسم المكى والمدني غير ما تقدم من الضوابط بأمور كثرت فيه وهى:

« مميزات القسم المكى »

١ » الدعوة إلى أصول الايمان الاعتقادية من الالهيات والوحي

والرسالة والبعث والجزاء وغيرها وذكر الأدلة الكونيـة والعقلية على ذلك لأن القوم كانوا غريقين فى حمأة الشرك وانكار النبوات لايقرون ببعث ولا جزاء

٢» محاجة المشركين ودعوتهم الى الايمان بهذه الأصول وابطال شبههم والرد عليهم وتسفيه أحلامهم وتذكيرهم بالنعم العظيمة لعقادهم وتماديهم فى الضلال ومقاومتهم للدعوة بما أوتوا من قوة

٣» أصول التشريع العامة والآداب والفضـائل الثابتة وبخاصة ما يتعلق بحفظ النفس والمال والعقل والدين ؛لانغماسهم فى الرذائل وبعدهم عن الفضائل فقدكانوا يأكلون الأموال بالباطل ويقتلون الأبناء ويئدون البنات وغير ذلك

٤»قصص الأنبياءمع أقوامهم ومافيهامن العبروالمواعظ ومافيهامن أصول الدين العام وهوالاسلام الذى جاءت به الرسل جميعاو بيان سنة الله تعالى فى الأقوام والأمم ليكون لهم فى قصصهم عبرةوقد كان ذكر القصص فى مكة من أعظم دلائل نبوته ﷺ اذ لوكان قد تأخر نزوله إلى المدينة لقالوا تعلمه من أهل الكتاب

٥» قصر أكثر آياته وسوره وهو المناسب لمقتضى الحال لما كان عليه أهل مكة من قوة البلاغة والفصاحة مع ما كان عليه أكابرهم من العناد والجحود فكان المناسب لهم النذر القارعة والمواعظ النافعة والزواجر الرادعـة ، والعبر الجامعة بآيات قصيرة تصخ آذانهم وتملك أذهانهم وتعقل بيانهم ، وتجعلهم حيارى مدهوشين بما كانوا يسمعون من آيات

مع كونها غاية فى الايجاز جمعت من المعانى والدلائل ما جعلهم يقرون بالاعجاز حتى قال أفصحهم « ان له لحـــلاوة وان عليه لطلاوة وان أسفله لمغدق وان أعلاه لمثمر وما هو بقول البشر »

مميزات القسم المدنى

يمتاز القسم المدنى بكثرة الأمور الآتية فيه وهى :

١» قواعـــد التشريع التفصيلية والأحكام العملية فى العبادات والمعاملات كما فى سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها .

٢» محاجة أهل الكتاب والتنبيه على تحريفهم لكتبهم واظهار ما أخفوه من مكنونات أسرارهم كما فى سـورة البقرة من محاجة اليهود وتذكيرهم بقصة موسى معهم وفى سورة آل عمران من محاجة النصارى ومحاجة الفريقين فى سورة المائدة وغيرها

٣» بيان ضـــلال المنافقين ومفاسدهم وذكر فضائحهم والأحكام المتعلقة بهم كما فى سورة البقرة والنساء والتوبة وغيرها

٤» قواعد التشريع الخاصة باحكام القتال وما يتعلق به من الصلح والعهود والغزوات والغنائم وغير ذلك

٥» طول أكثر سوره وبعض آياته لاشتمالها على الأمور السابقة ومقامات التفصيل والاطناب التى تقتضيها ومن ذلك ترى القرآن الكريم يسلك سبيل الايجاز لمقتضى الحال وسبيل الاطناب متى اقتضاه الحال وهو فى كلا الحالين فى أعلى طبقات البلاغة

﴿ الشبه التى أثيرت حول المكى والمدنى وردها ﴾

اعتاد المبشرون والملاحدة أن يتلمسوا المطاعن فى القرآن وغرضهم

بذلك التشكيك فى أن القرآن من عند الله ومن أعجب العجب أن كفار قريش وأهل الكتاب والمنافقين الذين قاوموا الدعوة ووقفوا فى سبيلها بكل ما لديهم من حيلة وقوة لم يطعنوا فى القرآن بمثل هذه الشبه وقد كان يقرعهم ويسفه عقولهم وينعى عليهم تقليدهم الأعمى وكانوا حريصين على تلمس الشبه والحجاج بالباطل والدعاوى الكاذبة كقولهم « سحر مفترى » « أو به جنة » ولم تطاوعهم عقولهم وأحلامهم أن يصطنعوا بما جاء هؤلاء المبشرون والملاحدة بعد القرون المتلاحقة أن يتقولوا على القرآن الكريم مالم يجرأ على تقوله أسلافهم ولولا الحرص على هداية ضال أو حماية عقيدة جاهل من مضلل لوفرنا على القارىء وقته فى سرد هذه الشبه وردها وكل هذه الشبه ترجع إلى أصل واحد فى زعمهم وهو الطعن فى أن القران من عند الله ، وهذه هى الشبه وردها

(أولا) قالوا : إن القسم المكى قصير السور قصير الآيات وأما القسم المدنى فهو طويل السور طويل الآيات . والسبب فى هذا الاختلاف تأثر محمد ﷺ بالبيئة فأهل مكة قوم أميون لا يقدرون على إنشاء العبارات الطويلة وأما أهل المدينة فكانوا بين أهل كتاب أو متصل بأهل الكتاب لهم قدرة على إنشاء العبارات الطويلة فتأثر بهم الرسول صلى الله عليه وسلم ووجدت عنده ملكة التعبير والقدرة عليه فصار يأتى بسور طويلة وآيات طويلة .

والرد على هذه الشبهة نقول (١) أن طول الكلام وقصره تابع

لمقتضى الحال الذى هو عماد البلاغة عند من يعرف البلاغة وليس تابعا للبيئة ولا متأثرا بالوسط (٢) دعوى أن أهل مكة كانوا أقل فصاحة وبلاغة من أهل المدينه دعوى يكذبها الواقع والتاريخ الصحيح فان قريشاً وهم أهل مكة كان اليهم الحكم النافذ والقول الفصل بين الشعراء والخطباء وكانوا من المكان الأعلى فى معرفة أساليب الكلام وفنونه .

٣) القرآن الكريم قد تحدى العرب فى بعض السور المدنية إقرأ قوله تعالى فى سورة البقرة المدنية « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله إلى قوله فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) كما تحداهم فى السور المكية بقوله فى سورة هود المكية (فاتوا بعشر سور مثله مفتريات) وفى سورة الاسراء المكية بقوله « قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» فانك ترى التحدى الواقع فى السورة المدنية جاء بسورة وهو يصدق باقصر سورة مثل « إنا أعطيناك الكوثر » فلو كان متأثرا بهم فى القرآن لكانو أقدر على معارضته والاتيان بمثل ما تحداهم به وأزيد وبهذا كله ظهر أن هذه الشبهة هباء وأن القول بها هذر وهراء وقد بينا حكمة قصر القسم المكى فيما تقدم

(ثانيا) قالوا إن القسم المكى خال من التشريعات التفصيلية والأحكام العملية وأما القسم المدنى فقد كثرت فيه هذه التشريعات وذلك لأن محمداً صلى الله عليه وسلم بعد أن هاجر إلى المدينة واختلط باهل الكتاب

وعرف تشريعاتهم ونهج نهجهم ونحا نحوهم وهذا دليل على أنه قد تأثر بهم وأخذ من علمهم..

وللرد على هذه الشبهة الواهية نقول .

١) إن القرآن نزل بمكة على قوم لا يقرون بأصول الايمان الثلاثة وهى الالهيات والنبوات والبعث وما يتبعه من جـــزاء وكانوا مع ذلك لا يحترمون نفسا ولا مالا ولا عرضا فكان من الطبعى ومن البديهى أن يدعوهم أولا إلى أصول الأيمان وإلى أصول الاخلاق التى أجمعت العقول السليمة على وجوب التحلى بها والتى لا حياة للأنسانية بدونها وكان لزاما أن يحاجهم فى ذلك ويقيم عليهم الادلة والبراهين فاذا تقررت هذه الاصول فى النفوس واستجاب لها من شرح الله صدره بالأسلام أخذ يدعوهم الى نظم المعاملة الحقة بينهم وبين خالقهم الذى أقروا به وبينهم وبين بعضهم بعد انصياعهم لحرمة النفوس والعقول والأموال والأعراض وهذه هى التشريعات التفصيلية وهى فروع لتلك الأصول وما لم يقروا بالاصول لا يصحوا أن يخاطبوا بالفروع فكان نهج القرآن فى المكى والمدنى هو الموافق لبداهة العقول لا لأنه تأثر بأهل الكتاب كما يزعم المضلل الجهول

(٢) كيف يكون النبى صلى الله عليه وسلم تعلم من اليهود أو النصارى مع أن القرآن قد نعى عليهم كفرهم وفسقهم وبخاصة اليهود فقد اكثر القرآن من ذكر سيئاتهم وسوآتهم ولعنهم فى غير موضع، اقرأ قوله تعالى « ألم تر الى أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت

ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا »وقوله تعالى «وقالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح بن الله الخ » وقوله تعالى « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » وقوله تعالى « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » ثم انظر تحديه لليهود بقوله « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » وبقوله « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» وإلى تحدى النصارى بقوله «فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين وغير ذلك من الآيات فلو كان القرآن قد استمد من ينبوع أهل الكتاب كما يزعم صاحب أهل الشبهة لأظهروا ذلك دفاعا عن تسفيهه لهم ولعنه إياهم وردا لوصفهم بالكذب والتحريف ولكنهم كلما جاءتهم آية وقفوا مبهوتين وكلما تحداهم كأنهم ألقموا حجراً ، فكيف يكون لهم فضل التعليم ولهم هذه المواقف المزرية إن هذا لا يقوله إلا مأفون مجنون ؟

«ثالثا» قالوا اشتمال القسم المكى على الوعيد والتهديد ، والقسوة والشدة والعنف والحدة دون القسم المدني الذى اشتمل على الصفح والعفو وقد استدلوا على شدة القسم المكى بسور «تبت يدا أبى لهب» « والعصر إن الانسان لفى خسر » «والهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر» وغير ذلك ، وجعلوا هذا دليلا على اختلاف القرآن باختلاف الوسط تشكيكا فى أنه من عند الله .

« وللرد على هـــذه الشبهة» نقول (١) إن كلا من القسم المكى والمدنى يشتمل على الشدة والوعيد إذا اقتضى المقام ذلك ويشتمل على اللين والعفو اذا دعا الحال إلى ذلك ، وهـذا شأن القرآن الكريم فى البشارة والنذارة ، والوعد والوعيد وأنواع خطاباته ، اقرأ ما جاء فى سورة الأعراف المكية (خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين) وفى سوره فصلت المكية (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون الى قوله وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) واقرأ قوله تعالى فى ســـورة البقرة المدنية (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين إلى قوله فى طغيانهم يعمهون)

وقوله فيها . «إن الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالو إنما البيع مثل الربا» وقوله فى سورة آل عمران المدنية «إن الذين كفروا ان تغنى عنهم أمـوالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار» وقوله تعالى فى سورة النساء المدنية «ومن يشاقق الرسول من ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا» وبهذا تعلم أن المكى كما اشتمل على الوعيد اشتمل على اللين وأن القسم المـدنى كما اشتمل على اللين اشتمل على الوعيد والتهديد ، فالقول بأن بينهما فرقا واختلافا ذلك قول من لم يقرأ القرآن ولم يعرف مكيه من مدنيه .

٢) إن ماذكره صاحب الشبهة من السور المذكورة نشأ من جهله

بأسباب النزول وبما اشتملت عليه من المعاني التي فيها صلاح الأمـــة وسعادتها .

ولنذكر سبب نزول تبت يدا نقلا عن الواحدى فى أسباب النزول فقد روى عن ابن عباس قال «صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا . فقال ياصباحاه ، فاجتمعت اليه قريش فقالت مالك . قال أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ، أما كنتم تصدقونى ، قالوا بلى قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب تبا لك ، ألهذا دعوتنا جميعا ، فأنزل الله عز وجل تبت يدا أبي لهب وتب إلى آخرها رواه البخارى ، اهـ وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله وامرأته حمالة الحطب قال كانت تحمل الشوك فتطرحه فى طريق النبي صلى الله عليه وسلم ليعقره وأصحابه .

وقال الواحدى أيضا «بسم الله الرحمن الرحيم ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر» قال مقاتل والكلبي نزلت فى حيين من قريش : بنى عبد مناف وبنى سهم كان بينهما خلاف فتعاقدا السادة والأشراف أيهم أكثر ، فقال بنوا عبد مناف نحن أكثر سيدا وأعز عزيزا وأعظم نفرا ، وقال بنو سهم مثل ذلك ، فكثرهم بنو عبد مناف ثم قالوا نعد موتانا حتى زاروا القبور فعدوا موتاهم ، فكثرهم بنو سهم ، لأنهم كانوا أكثر عددا فى الجاهلية ، وقال قتادة نزلت فى اليهود قالوا «نحن أكثر من بنى فلان وبنوا فلان أكثر من بنى فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالا» اهـ هذا سبب النزول لكل من السورتين ، « والغـــرض من سورة

«تبت يدا» الوعيد والانذار لأبي لهب وامرأته على تكذيبهما للرسول صلى الله عليه وسلم واقامتهما العقبات فى سبيل دعوته وفى ذلك قمع لغيرهما ليعم الايمان وتنتشر الفضيلة وليس هذا بأشد من لعن اليهود الذى هو الطرد من رحمة الله والوعيد بسوء المصير لمن يشاقق الرسول فى الآيات المدنية «وأما سورة الهاكم» فالغرض منها النهى عن التكاثر والتحذير من عاقبته الوخيمة وبيان ان التفاخر بالاموال والاحساب والحرص عليها مدعاة للتلهى عن الخير حتى لا يغتروا بالعرض الفانى من الماديات ويقبلوا على تهذيب نفوسهم وتنمية عقولهم وأرواحهم لينالوا سعادة الدنيا والنعيم فى الآخرة وان هذا هو الارشاد إلى طريق الخير لمن بصره الله وهداه.

وأما سورة «والعصر» فالغرض منها تنويع أفراد الانسان إلى نوعين

«أحدهما» حاد عن طريق الهدى والرشاد فلم يمتلىء قلبه بنور الايمان ولم تلن جوارحه بصالح الأعمال وطرح الحق وراء ظهره، وجعل الباطل كل همه وخلا قلبه من الصبر فى السراء والبأساء، فهو فى هلع وجزع وغمط للحق، لا شك أن هذا خاسر هالك قد أضاع عمره فيما لا يفيده

«ثانيهما» استنارت بصيرته بعقيدة الايمان وقام بالأعمال الصالحة لخير نفسه وخير غيره فأفاد نفسه وأفاد المجموع وجعل الحق رائده، والصبر فى جميع المواطن هاديه: له ولغيره وينطوى تحت هذه الفضائل من تربية القوتين النظرية والعملية ويعود بالسعادة على العالم ما لو

أردنا تقصيه لطال بنا المقام فعجيب أن تعد هذه السورة وما قبلها من الأساليب الخارجة عن المألوف فى الخطاب ولكنه الجهل يدفع بصاحبه إلى الخطل عصمنا الله من الزلل فى القول والعمل

رابعا : قالوا ان القسم المكى قد كثر فيه القسم بالأشياء المحسوسة من الأمكنة والأزمنة والثمار وما ذاك الالأن أهل مكة قوم مداركهم لا تعدو المحسوسات فكان القرآن متأثرا بوسطهم بخلاف القسم المدنى فانه لم يشتمل على ذلك ضرورة أن اليهود كانوا بالمدينة وهم قوم مهذبون تعلو امداركهم إلى ما فوق المحسوسات لذا تأثر القرآن هناك بوسطهم ويجعلون هذا الاختلاف دليلا على أن الرسول ﷺ هو الذى أتى بالقرآن من عند نفسه

(وللرد على هذه الشبهة نقول :

١ » قد بينا فيما تقدم أن أهل مكة كانوا أرقى العرب فصاحة وبلاغة وكان اليهم الحكم النافذ فى خطب العرب وقصائدهم وكان ذلك من أكبر مفاخرهم وكيف لا يعرفون غير المحسوسات وقد طولبوا بالايمان بالله وبصفاته بما غاب عنهم من اليوم الآخر وما فيه وأقيمت عليهم الأدله العقلية والكونية فهل هـذا بخطاب ويطالب به من لا يدرك ما وراء الحس فوصف أهل مكة بالانحطاط العقلى لا يكون الاممن تجرد من عقلة وعميت بصيرته

(٢) إن القسم بهـذه الأشياء قد كثر فى القسم المكى لأن دعوة أهل مكة كانت إلى أصول الايمان من الالهيات وغيرها من بيان الحجج وغيرها

وبيان الحجج الدالة على ذلك (وفى القسم بهذه الأشياء العظيمة التنبيه على أنها آيات ودلائل على قـــدرة الله تعالى والأشارة الى ما فى هذه الأشياء من المنافع العظيمة وبذلك تنتقل عقولهم من الاهتداء بها إلى الاعتراف بالخالق جلا وعلا والله تعالى أقسم لهم بما فيه النفع لهم من المحسوسات كالشمس والـكواكب وغيرها أو المعنويات كالقرآن فقد أقسم به غير مرة بل أقسم بنفس الانسان

وبالرسول صلى الله عليه وسلم لأن نفعه عام وهدايته شاملة أرسله الله رحمـــة للعالمين ، أبعد هذا يقال ان اشتمال القسم المكى على القسم بهذه المحسوسـات دليل على تأثره بالبيئة والكلام فى أقســام القرآن لا يفى به هذا المختصر

(خامسا) قالوا إن القسم المكى قد افتتح كثير من سوره بالفاظ غير ظاهرة المعنى مثل (ألم) (وحم) (وطسم) وغيرها من فواتح السور المفتتحة بالحروف الهجائية والخطاب بها كالخطاب بالمهمل الذى لا يفيد واشتمال القرآن عليها مبينا ينافى هدى للناس فأى هداية تقع بأمثال هذه الحروف التى لا تفيد معنى فهى لا تعدو أحد أمرين؛ إما أن تكون رموزا قد قصد بها التهويل والتعمية واظهار القرآن فى مظهر مخيف ، وإما أن تكون رموزا قد وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنا هذا ما يقوله بعض الطاعنين فى القرآن، وقد تجاوز بعضهم الحد فى الطعن فقال إن هذه الألفـاظ مما وضعه اليهود من كتبة محمد (صلى الله عليه وسلم ومعناها دأو عز إلى محمد، أو

(أمرني محمد) والذى حملهم على زيادتها تبرؤهم من الايمان بما يأمرهم بكتابته

هذا مايقوله الطاعنون على فواتح السور والغرض منه التشكيك فى القرآن

«وللرد على هذه الشبهة» نقول

(١) أما دعوى أن هذه الفواتح ليس لها معنى وأن اشتمال القرآن

عليها لا يفيد فانها دعوى من لم يطلع على آراء العلماء فى فواتح السور

وأكثر العلماء على أن فاتحة كل سورة اسم للسورة التى افتتحت بها

وقد وردت آثار كثيرة تفيد ذلك «فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال

«من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح» وروى عنه أيضا أنه قال.

«يس قلب القرآن وقد اشتهرت بعض السور بالتسمية بها «ولا يرد»

كونها وردت فى فواتح سور مختلفة بلفظ واحد لأن ذلك لا ينافى كونها

اسماء للسور كالأعلام المشتركة اشتراكا لفظيا وهذا معهود فى اللغة

العربية ويضم إلى كل اسم ما يميز مسماه عن غيره مثل «الم البقرة»

«والم آل عمران» وهكذا

وعلى ذلك فتكون هذه الأسماء مفيدة لمعنى معلوم عند المخاطبين.

ويدل على هذا الرأى خلاف الآثار السابقة وشهرة التسمية أنه

لو لم تكن العرب قد فهموا منها مدلولا لكانوا أول من أنكر ذلك على

النبى ﷺ مع أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تلى عليهم حم وص والم

وغيرها ولو انكروا لنقل الينا ذلك فعدم انكارهم دليل على أنهم كانوا

يفهمون منها معناها كيف وهم قد كانوا حريصين على وجود

هفوة أو زلة يشهرون بها وأيضا فالرسول صلى الله عليه وسلم قد تحداهم

تحداهم بالقرآن غير مرة فكيف يقع التحدى بما لا معنى له من الكلام ويسكتون على ذلك وإذا ثبت أنها لمعنى مفهوم لم تكن من قبيل المهمل ولا تنافى كون القرآن هدى وبيانا للناس .

٢) أما قول بعض الطاعنين إنها من وضع اليهود الذين كانوا يكتبون لمحمد ﷺ فهذه دعوى ساقطة عن الاعتبار ضرورة أنه لم يعرف فى أى تاريخ أن النبى ﷺ كان له كتبة من اليهود فهذا مجرد اختلاق على الحقيقة والتاريخ ، وعلى فرض صحة ذلك فى أى لغة يكون ألم أو كهيعص أو طسم أو غيرها بمعنى (أوعز إلى محمد) أو (أمرنى محمد) هذا زعم كاذب وقول لا وجود له إلا فى وهم مخترعه وبهذا قد ذهبت هذه الشبهة هباء كما ذهب غيرها .

سادساً : قالوا إن القسم المكى خال من الحجج والبراهين بخلاف القسم المدني فانه هو الذى جاء بالحجة والبرهان وهذا يدل على تأثر القرآن بالوسط الذى كان فيه محمد ﷺ (وللرد على هذه الشبهة) نقول إن هذا زعم من لم يدرس القرآن ولم يعرف مكيه من مدنيه فانه لو نظر قليلا لوجد القسم المكى مملوءا بالحجج والبراهين على توحيد الله وعلى البعث والنبوات التى تبهر العقول وتأخذ بالألباب وتهدى الضال ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وإن شئت نموذجا من براهين القسم المكى فاقرأ قوله تعالى فى سورة الأنبياء المكية «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» وقوله تعالى فى

سورة الروم المكية «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون إلى قوله وله من فى السموات والأرض كل له قانتون» وقوله تعالى فى سورة النمل المكية «أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون إلى قوله تعالى قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» ولو تتبعنا سور القرآن المكية لوجدنا اكثرها لا يخلو من حجة ودليل فدعوى خلو القسم المكى من الحجاج قول من لم يكلف نفسه مؤونة النظر فى القرآن ولكنه يرجم بالغيب ولا يدرى ماذا يقول هذه خلاصة الشبه وردها وقد اقتصرنا على ما ذكر ليكون نموذجا لغيره والله الموفق للصواب .

«٧» جمع القرآن وتاريخه

والرد على ما يثار حوله من شبه

ونماذج من الروايات الواردة فى ذلك

ورد جمع القرآن فى الروايات على حالتين

الأولى جمعه بمعنى «حفظه» على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومنه قوله تعالى «ان علينا جمعه وقرآنه» اى جمعه فى صدرك وقراءته على لسانك ومما ورد فيه : ما فى صحيح البخارى من حديث قتادة قال سألت انس بن مالك رضى الله عنه عمن جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال اربعة كلهم من الانصار ابى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وابو زيد قلت لانس م

ابو زيد قال احد عمومتى وفى البخارى عن انس أيضا « قال مات النبى صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ ابن جبـــل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ونحن ورثناه » وفى رواية أخرى قال : أبو زيد ولم يترك عقبا ، وكان بدريا ، وقد روى أبوداود باسناد على شرط الشيخين عن ثمامة عن أنس أن اسم ابي زيد قيس ابن السكن ، وقال القرطبى ان اسمه سعد بن عبيد ورواية أبى داود أصح .وههنا تعارض بين الحديثين من وجهين

أولهما : أن الحـديث الأول المروى عن أنس لا يدل على حصر من حفظ القرآن كله على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فى أربعة بخلاف الحديث الثاني فانه يدل على الحصر فى أربعة، ويشهد للحديث القاضى بعدم الحصر ماهو المعروف بل المنقول تواترا أن الذين حفظوا القرآن على عهد رسول الله صـلى الله عليه وسلم أكثر من أربعة منهم الخلفاء الأربعة فقـد تظاهرت الروايات بأنهم جمعوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة رضى الله عنه وغيرهما

ثانيهما : أن الحديث الثانى فيه أبو الدرداء بدلا من أبى بن كعب الذى فى الحـديث الأول فمقتضى الحديث الأول أن أبى بن كعب ممن جمعوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ومقتضى الحديث الثانى أنه ليس منهم ضرورة الحصر فى أربعة ليس منهم أبي بن كعب

(والجواب عن هـذا التعارض) أن الحصر فى الحديث الثانى

إضافى وليس حقيقيا أى بحسب الواقع ونفس الأمر لأنه لا يمكن الاحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم فى البلاد ولا يتم الحصر الحقيقى لأنس رضى الله عنه الا اذا كان قد لقى كل واحد منهم وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا فى غاية البعد عادة ؛ واذا كان الأمر كذلك وجب القول بأن الحصر اضافى لا حقيقى حتى يتأتى التوفيق بين الحديثين الصحيحين ومعنى كون الحصر اضافيا أن أنسا رضى الله عنه لم يقصد فى الحديث الثانى الحصر بالنسبة لجميع الصحابة بل قصده بالنسبة للحاضرين معه وقت هذا القول ويكون قد قال ذلك لغرض من الأغراض الدينية وقرينة الواقع وهى انه لم يستوعب جميع الصحابة تؤيد ذلك ؛ وعلى هذا فلا تعارض بين الحديثين وقد وفق القرطبى بينهما بوجه آخر حيث قال ما نصه : قال ابن الطيب رضى الله عنه لا تدل هذه الآثار على ان القرآن لم يحفظه فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وتميم الدارى ، وعبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ؛ فقول أنس لم يجمع القرآن غير أربعة (يحتمل) انه لم يجمع القرآن وأخذه تلقينا من رسول الله ﷺ غير تلك الجماعة فان أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه عن غيره وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الاسلام

وإعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم قلت لم يذكر القاضى : عبد الله ابن مسعود، وسالما مولى ابى حذيفة رضى الله عنهما ، فيما رايت وهما ممن جمع القرآن اهـ. ثم ذكر القرطبى بعد ذلك روايات تدل على ان عبد الله بن مسعود ممن جمع القرآن . وقد عرفت انه يمكن الجمع بين الحديثين : واما بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فقد اتم حفظه آلاف كثيرة من الصحابة وقد اشتهر باقراء القرآن سبعة من الصحابة وهم عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعرى) فلم يمض زمن يسير على وفاة النبى صلى الله عليه وسلم حتى كان القرآن كله مجموعا أى محفوظا فى صدور الآلاف من الصحابة

(الحالة الثانية جمع القرآن بمعنى كتابته) وقد كان جمع القرآن بمعنى كتابته فى ثلاثة عهود .

(أولها) جمعه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

(ثانيها) جمعه فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

(ثالثها) جمعه فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ولنتكلم عليه فى عهوده الثلاثة مع ذكر كيفية كل وسببه والفرق بينه وبين غيره فنقول

﴿أولا — جمع القرآن بمعنى كتابته فى عهد النبى ﷺ﴾

قد ورد فى ذلك ما أخرجه الحاكم فى المستدرك بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت (قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع : قال البيهقى يشبه أن يكون المراد به.

ما نزل من الآيات المفرقة فى سورها جمعها فيها بإشارة من النبى صلى الله عليه وسلم، وروى النيسابورى عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال ضعوا هذه السورة فى الموضع الذى يذكر فيها كذا وكذا فالقرآن كله كان مجموعا أى مكتوبا على عهد رسول الله صلى عليه وسلم فانه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يكتب له أن يضعها فى موضع كذا، من سورة كذا، ولا نزلت سورة إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكاتب أن يضعها بجنب سورة كذا، وإن الذين حفظوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يكونوا قد جمعوه بين الدفتين ولم يلزموا القراء توالى سوره وذلك لأن الواحد منهم كان إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو كتبها ثم خرج فى سرية أو غزوة أو غاب لشأن من الشئون ونزل وقت غيبته شىء من القرآن ثم رجع أخذ بعد رجوعه فى حفظ ما نزل وقت مغيبه وكتابته ويتتبع ما فاته على حسب ما يتسهل له فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير من هذا الوجه؛ وكان منهم من يعتمد على حفظه فلا يكتب على ما كان من عادة العرب فى حفظ أنسابها وأشعار شعرائها من غير كتابة منهم؛ وبعضهم كان يكتبها فى مواضع مختلفة من قرطاس وكتف وعسب ثقة منهم بما كانوا يعهدونه من جد المسلمين فى حفظ القرآن فلا يرون بأكثرهم حاجة إلى مصحف ينظر فيه

ويتلخص من هذا «أمران»

«أحدهما» أن القرآن كله جمع بمعنى أنه كتب جميعه بين يدى الرسول ﷺ بواسطة كتاب الوحى الذين كان يأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم غير أن كان مفرقا فى العسب والأكتاف وغيرها ولم يكن مجموعا بين دفتين

«ثانيهما» أن كثيرا من الصحابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب كثيرا منه على قدر ماتسهل له وكانت كتابتهم له أيضا متفرقة غير مجموعة فى مصحف واحد، وإن صار مكتوبا جميعه عند مجموعهم بمعنى ان هذا كتب كذا وذاك كتب كذا وقد يتفق عدد منهم فيما كتبوا وقد يزيد أحدهم عن الآخر وقد يكتب أحدهم سورة أو أكثر غير ما كتبه الآخر وهكذا، وإنما لم يجمع النبى صلى الله عليه وسلم القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض احكامه او تلاوته، ولما كان يترقبه ايضا من تتابع الوحى «وأيضا فان ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله فقد كانت تنزل آية أو سورة وتكون فى الترتيب قبل التى نزلت قبلها وهكذا فيكون جمعه فى مصحف واحد عرضة للتغيير والتبديل فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ وعلم ترتيبه الهم الله الخلفاء الراشدين جمعه على النحو المخصوص وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد أبي بكر الصديق بمشورة عمر رضى الله عنهما كما سيأتي

والسبب الباعث على جمع القرآن أى كتابته بأمر الرسول ﷺ «أمور»

«أولها» تبليغ الوحى على الوجه الأكمل لأن الاعتماد على حفظ الصحابة غير كاف لأنهم عرضة للنسيان والموت فلو اعتمد على حفظهم وحده لخشى ضياع شىء منه بالنسيان أو بالموت أما الكتابة فباقيـة لا يتطرق إليها ذلك .

«ثانيها» تبليغ الشاهد الغائب وتبليغ الصحابة من بعدهم .

«ثالثها» معاضدة المكتوب للمحفوظ ولذا كان الحفظ والكتابة مصدرين رجع إليهما الصحابة عند جمع القرآن فى مصحف واحد .

«وقد امتازت الكتابة فى عهد الرسول ﷺ» بأمور

(أولها) أنه لم يكن مجموعا فى مصحف واحد

(ثانيا) أنه لم يكن مرتب السور والآيات

(ثالثها) أنه كان مكتوبا بالأحرف السبعة التى نزل عليها

(رابعها) أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض المنسوخ تلاوة وبعض ما هو ثابت بخـبر الواحد ولم يقتصر على ما ثبت بالتواتر كما سيأتي .

﴿جمع القرآن فى عهد أبي بكر الصديق رضى الله عنه﴾

قد علمت أن القرآن كان محفوظا كله فى صدور الرجال ومكتوبا كله على عهد رسول الله ﷺ إلا أنه كان متفرقا ..

«وأول من جمعه بين الدفتين فى مصحف واحد» بعـد وفاة

رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضى الله عنه لما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة وكان فى ربيع الأول سنة ١٢ أثنى عشرة وقيل فى أواخر سنة احدى عشرة كما فى كتب التاريخ فى زمن خلافته وقتل منهم فى ذلك اليوم على ما قيل سبعمائة ، وذلك باشارة عمر بن الخطاب على أبى بكر رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء كأبى وابن مسعود، وزيد ، فندبا زيد بن ثابت رضى الله عنه إلى ذلك فجمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد ؛ يدل على ذلك ما رواه البخارى عن زيد ابن ثابت قال : أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر إن عمر أتانى ؛ فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ؛ وإني لأرى أن تجمع القرآن ، قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؛ فقال هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ؛ ورأيت الذي رأى عمر ، قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ؛ كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرني به من جمع القرآن قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابو بكر هو خير فلم أزل اراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ؛ فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع

والأكتاف والعسب وصدور الرجال ؛ حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» إلى آخرها فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ؛ ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة وقد ورد في رواية أخرى «مع خزيمة أو أبي خزيمة».

وقد علمت أن القرآن كان مكتوبا بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب فالذي فعله أبو بكر وأمر به زيدا إنما هو نسخها من مكان إلى مكان ليكون مجتمعا ، فكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه فيها القرآن منتشر ، فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء ؛ وقد اعتمد في ذلك على الرقاع وصدور الرجال الحفاظ لأنهم كانوا يبدون عن تأليف معجز ونظام معروف قد شاهدوا تلاوته من الرسول صلى الله عليه وسلم فكان تزوير ما ليس منه مأمونا

وأخرج ابن أبي داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد «اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه» رجاله ثقاة مع انقطاعه ؛ وقد اختلف العلماء في المراد بالشاهدين فقال ابن حجر المراد بالشاهدين الحفظ والكتابة وقال السخاوي المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن . قال أبو شامة وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من

عين ما كتب بين يدى رسول الله ﷺ لا من مجرد الحفظ قال ولذلك قال فى آخر سورة التوبة لم أجدها مكتوبة مع غيرى لأنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة ، وبهذا تعلم أنهم بالغوا فى التوثق فى كتابة القرآن فلم يقبلوه إلا من المصدرين معاً وهما الحفظ والكتابة بين يدى الرسول ﷺ «والسبب الباعث على الجمع فى عهد أبي بكر» يعلم من الرواية السابقة وهو خوف ضياع شىء من القرآن وقد صرح بذلك فى قوله «وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن» أى فيضيع كثير من القرآن بموت الحفاظ وقد يكون عند أحدهم شىء من المكتوب يضيع بموته ؛ وقد علمت أن المصدرين المعول عليهما فى جمع القرآن هما الحفظ والكتابة ولهذا كانت العناية شديدة بحفظ الصحف التى كتبها زيد بن ثابت لتكون مرجعاً عند الحاجة فكان موضعها عند الخليفة الأول أبى بكر ثم عند الخليفة الثانى عمر ثم عند حفصة أم المؤمنين إلى أن طلبها منها عثمان الخليفة الثالث عند الجمع الثالث كما يأتى :

«ويمتاز الجمع فى عهد أبى بكر بأمور» : (أولها) : أنه اقتصر على ما لم تنسخ تلاوته . (ثانيها) : أنه لا يقبل فيه إلا ما أجمع الجميع على أنه قرآن وتواترت روايته ولم تقبل فيه رواية الواحد ولذا ردت رواية عمر فى آية الرجم لأنها لم تتواتر ؛ وأما آخر براءة التى قيل فيها «لم أجدها مع غيره» فالمراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره لأنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة وذلك لا ينافى أنها كانت محفوظة لجمع

كثير يتحقق بهم التواتر فنقلها عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتواتر (ثالثها) : إنه لم ينقل فيه إلا ما كان مكتوبا بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم.

«وقد قيل» إن ثبوت الروايات الدالة على أن أبا بكر رضى الله عنه أول من جمع القرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينافى ما ورد من أن عليا رضى الله عنه أول من جمع القرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤيد ذلك ما نقله السيوطى عن ابن الضريس من حديث محمد بن سيرين عن عكرمة قال : «لما كان بدء خلافة أبى بكر قعد على بن ابي طالب فى بيته فقيل لأبي بكر قد كره بيعتك فأرسل إليه فقال : أكرهت بيعتى ؛ فقال لا والله : قال ما اقعدك عنى ؛ قال رأيت كتاب الله يزاد فيه فحدثت نفسى أن لا البس ردائى إلا لصلاة حتى اجمعه ؛ قال له ابو بكر فانك نعم ما رايت قال محمد فقلت لعكرمة ألفوه كما انزل الأول فالأول: قال لو اجتمعت الانس والجن على ان يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا وأخرج هذا الأثر بن اشته من وجه آخر عن ابن سيرين وفيه أنه كتب فى مصحفه الناسخ والمنسوخ وأن ابن سيرين قال فطلبت ذلك الكتاب وكتبت فيه إلى المدينة فلم أقدر عليه) فهذه الرواية صريحة فى أن عليا كتب مصحفا فى بدء خلافة أبي بكر فيتعين أن يكون المراد بالجمع الذى قال على فى الرواية السابقة كتابة القرآن فى مصحف وذلك ينافى ما ثبت من أول من جمع القرآن بعد رسول الله ﷺ أبو بكر

«ويجاب عن ذلك» بأن عليا وغيره ممن كتبوا المصاحف إنما كتب كل واحد منهم معتمدا على محفوظه وروايته ولم يقتصر على المتواتر وغير منسوخ التلاوة وأما ابو بكر فكان أول من جمع القرآن واقتصر فيه على ما أجمع عليه الجميع وتواترت روايته عن النبى صلى الله عليه وسلم ووجد مكتوبا فى عهده صلى الله عليه وسلم واقتصر فيه على مالم تنسخ تلاوته بخلاف جمع على وغيره ما تقدم

﴿ جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه ﴾

لما كان عهد عثمان رضى الله عنه وتفرق الصحابة فى البلدان اختلف الناس فى القراءات واشتد الأمر فى ذلك وعظم اختلافهم وتشبثهم كما وقع بين أهل الشام وأهل العراق فى غزوة ارمينية استشار عثمان الصحابة فرأوا ورأى معهم جمع الناس على مصحف واحد لا يتأتى معه اختلاف ولا تنازع ولا مراء فأرسل إلى حفصة رضى الله عنها فى طلب الصحف التى كتبت فى عهد ابى بكر ثم انتقلت منه إلى عمر ومنه اليها فبعثت بها اليه لتكون أساسا فى جمع القرآن ثم عهد عثمان إلى زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فأمرهم أن ينسخوا الصحف فى المصاحف ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة ما اختلفتم فيه انتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فانه نزل بلسانهم فلما نسخوا الصحف فى المصاحف مع ترتيب السور على الوجه المشهور بعث عثمان فى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف وحمل الناس على القراءة بوجه واحد تلافيا لما نشأ فى ذلك الوقت من

الاختلاف فى القراءة ، وأمر بما سوى ذلك من القرآن أن يحرق أو يخرق ورد الصحف إلى حفصة فبقيت عندها إلى أن توفت رضى الله عنها فأرسل مروان بن محمد إلى عبد الله بن عمر عقب انصرافه من جنازتها ليرسلن إليه تلك الصحف فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر فأمر بها مروان فشققت ، وقال إنما فعلت هذا لأني خشيت إن طال بالناس الزمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب ؛ ومما ورد فى شأن هذا الجمع ما رواه البخارى فى صحيحه عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا : حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ؛ وروى عن زيد بن ثابت أنه «قال فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت اسمع رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» فألحقناها بسورتها فى المصحف وقد ورد أنهم اختلفوا فى التابوت فقال زيد التابوه وقال ابن الزبير وسعيد بن العاص التابوت فرفع اختلافهم إلى عثمان فقال اكتبوه بالتاء

وأخرج بن ابى دواد فى المصاحف من طريق ابي قلابه انه قال «لما كان فى خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بعضا ، فبلغ ذلك عثمان ، فخطب فقال أنتم عندى تختلفون ؛ فمن نأى عنى من الأمصار أشد اختلافا » فكأنه والله أعلم لما جاءه حذيفة وأعلمه باختلاف أهل الأمصار تحقق عنده ماظنه من ذلك ورأى الأمر قد حزب ؛ فأمر بما أمر به ،

قال الحافظ بن حجر وكان ذلك فى أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين وهو الوقت الذى ذكر أهل التاريخ أن أرمينية فتحت فيه .

ثم أن عثمان لم يفعل ذلك إلا بعد أن استشار الصحابة وكان ذلك على ملأ منهم فقد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد عن سويد بن غفلة قال « سمعت على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : يامعشر الناس ؛ اتقوا الله وإياكم والغلو فى عثمان وقولكم حراق مصاحف ، فوالله ماحرقها إلا عن ملأ منا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم»

وعن عمر بن سعيد قال (قال على بن أبى طالب رضى الله عنه، لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان) وفى أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى وان ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام وطرحها فى الأرض وقد كان طاووس يحرق الرسائل إذا أجمعت عنده وفيها بسم الله الرحمن الرحيم وحرق عروة بن الزبير كتب فقه كانت عنده يوم الحرة وقال القاضى ابو بكر جائز للامام تحريق الصحف التى فيها القرآن إذا أداه اليه اجتهاده وجزم عياض بأنهم غسلوا مابأيديهم من الصحف بالماء ثم احرقوها مبالغة منهم فى اذهابها ويؤخذ مماتقدم

(أن السبب الباعث على جمع القرآن فى عهد عثمان) هو دفع الاختلاف والتنازع فى القرآن وقطع للمراء فيه وخشية الفتنة من اجل الاختلاف وحمل الناس على القراءة بوجه واحد لذلك واما قبله فقد كانت المصاحف بوجوه القراءات على الحروف السبعة التى أنزل بها القرآن ولم تحتج الصحابة فى أيام أبى بكر وعمر إلى جمعه على الوجه الذى جمعه عليه عثمان ؛ لأنه لم يحدث فى أيامهما من الخلاف ماحدث فى ايام عثمان ، ولقد وفقه الله لأمر عظيم فرفع الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة ، ولهذا لم ينكر عليه أحد بل رضوا فعله هذا وعدوه من مناقبه وآثاره الخالدة رضى الله عنه وعنهم أجمعين

(وأن الجمع فى عهد عثمان قد امتاز بالأمور الآتية :)

(أولهـــا) الاقتصار فى المصحف على حرف واحد وهو حرف قريش كما سبق بيـانه

(ثانيها) الاقتصار فيه على ما ثبت بالتواتر وترك ماكانت روايته أحادية وما نسخت تلاوته فلم يكتبوا فى جمع عثمان الا ما تحققوا أنه قرآن وثبت صحته قطعا عن النبي ﷺ وعلموا أنه استقر فى العرضة الأخيرة وكان زيد بن ثابت قد شهدها

(ثالثها) ترتيب سوره وآياته على الوجه المعروف الآن وأما فى عهد أبى بكر فقد كان جمعه مرتب الآيات دون السور

(رابعها) تجريده من النقـط والشكل ومن كل ما ليس قرآنا بخلاف بعض ما كان مكتوبا عنـد بعض الصحابة فانه كان فيه بعض تأويلات وتغييرات لبعض ألفاظه ، وبما ذكرنا تعلم الفرق بين كل جمع والذى قبله

بيان المصاحف التى كتبت فى عهد عثمان

﴿ وعددها والسبب فى التعدد وما يتعلق بذلك ﴾

المصاحف جمع مصحف بزنة مفعل من أصحفه أى جمع فيه الصحف والصحف جمع صحيفة وهى قطعة من جلد أو ورق يكتب فيه وقد يقال مصحف بكسر الميم روى أن ابا بكر الصديق استشار الناس بعد جمع القرآن فسماه مصحفا فصار علما على ماجمع فيه القرآن كله

(عـــدد المصاحف :)

.. اختلف في عدد المصاحف التي كتبت في عهد عثمان ووجه بها إلى الأمصـــار : في الكواكب الدرية لشيخ القراء بالديار المصرية الآن الشيخ محمد على خلف الحسيني ما نصه « واختلف في عدد المصاحف التي كتبها عثمان فقيل وهو الذي صوبه ابن عاشر في شرح الاعلان انها ستة المكى والشامى والبصرى والكوفى والمدنى والعام الذي سيره عثمان رضى الله عنه من محل نسخه الى مقره والمدنى الخاص به الذي حبسه لنفسه وهو المسمى بالامام، وقال الحافظ ابن حجر والجلال السيوطى رحمهما الله المشهور أنها خمسة ،وقال صـــاحب زاد القراء للمـــا جمع عثمان القرآن في مصحف سماه الامام ونسخ منه مصاحف فانفذ منها مصحفا إلى مكة ،ومصحفا إلى الكوفة،ومصحفا إلى البصرة ومصحفا إلى الشام،وحبس مصحفا بالمدينة وقال الجعبرى حبس مصحفا بالمدينة للناس وآخر لنفسه وسير باقيها إلى أمراء الأمصار، ثم قال ومجموعها ثمانية خمسة متفق عليها،وثلاثة مختلف فيها يعنى بالخمسة المتفق عليها الكوفى ،والبصرى والشامى والمدني العام، والمدني الخاص، وبالثلاثة المختلف فيها المكى ومصحف البحرين ومصحف اليمن لقول العلامة الشاطبى

وساق في نسخ منها مع المدنى … كوف وشام وبصر تملأ البصرا

وقيل مكة والبحرين مع يمن … ضاعت بها نسخ في نشرها قطرا

ثم قال ان مصر سير اليها مصحف اه

وقال القرطبي :قيل سبعة وقيل أربعة وهو الأكثر ووجه بها إلى

الآفاق فوجه للعراق والشام ومصر بامهات فاتخذها قراء الأمصار معتمد إختيار اتهم ولم يخالف أحد منهم فى مصحفه على النحو الذى بلغه وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى موضع اشعارا بأن كل ذلك صحيح، وان القراءة بكل منها جائزة، اه

(فالسبب فى تعدد المصاحف) أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم قصدوا كتابة المصاحف على ما وقع عليه الاجتماع ونقل متواترا عن النبى ﷺ من القراءات فعددوا المصاحف لتكون مشتملة على جميع القراءات المتواترة واختلاف القراءات له حالتين

(الأولى) أن تحتمل صورة اللفظ خطا القراءتين المختلفتين أو القراءات، وفى هذه الحالة يكتب اللفظ فى جميع المصاحف بصورة تحتملها مثل ننشرها وننشزها (وفتبينوا وفتثبتوا) (وأف) باختلاف حركات آخره و(هيت) باختلاف القراءات فيه. وهكذا فانها تكتب فى جميع المصاحف بصورة واحدة تحتمل جميع القراءات. ولاشك أنها كانت مجردة من النقط والشكل.

(الحالة الثانية) أن لا تكون صورة اللفظ خطا محتملة للقراءات المختلفة وفى هذه الحالة تكتب فى بعض المصاحف بصورة وبعضها بصورة أخرى ولم تكتب مكررة فى مصحف واحد لئلا يتوهم أنها تقرأ مكررة كذلك وأنها نزلت دفعة واحدة مكررة بل كل قراءة

نزلت وحدها وكذا لم تكتب إحداهما فى الأصل والأخرى بالحاشية لئلا يتوهم أن الثانية تصحيح للأولى، وأيضا اعتبار إحداهما فى الأصل والأخرى بالحاشية تحكم - وذلك مثل «ووصى وأوصى» و «تجرى تحتها ومن تحتها» «وسيقولون الله ولله» وما عملت أيديهم و «ما عملته أيديهم» وهكذا وعلى ذلك فمن وصل اليه المصحف الذى فيه وأوصى قرأ به ومن وصل اليه الذى فيه ووصى قرأ به وهكذا، وأما مالم تختلف فيه القراءات فقد كتب بصورة واحدة فى جميع المصاحف كالحالة الأولى وبهذا كانت المصاحف التى كتبت بأمر عثمان رضى الله عنه مشتملة على جميع القراءات المتواترة؛ مع تجريدها من النقط المبين للحروف، والشكل المبين للحركات؛ وسيأتى بيان حدوث النقط والشكل وإنما جردت من ذلك لأمور (١) ماروى (جردوا مصاحفكم)

(٢) لتحتمل الكلمة التى تفهم بصورة واحدة أكثر من وجه، بما صح نقله وثبتت تلاوته عن النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه القراءات لأن الاعتماد لم يكن على مجرد الخط بل كان على الحفظ والرواية ولذا يقرأ نحو فتبينوا بالتاء والثاء ولا تسئل بالبناء للفاعل مع الجزم وبالبناء للمفعول مع الرفع .

٣) لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين، فان الصحابة رضى الله عنهم تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن الذى أمره الله بتبليغه بجميع وجوه قراءاته، ولم

يكونوا ليسقطوا شيئا من القرآن الثابت عنه صلى الله عليه وسلم ولا يمنعوا من القراءة به، وقد أجمعوا على هذه المصاحف ولم يخالف فيها واحد منهم، ولنذكر ما ورد على جمع القرآن من شبه وردها فنقول .

﴿ الشبه التي وردت على جمع القرآن وردها ﴾

قد تمسك بعض الطاعنين على جمع القرآن بشبه أكثرها في الأصل مما أورده بعض الكاتبين وأجاب عنه ، ولكن شغف هؤلاء الطاعنين بالطعن جعلهم يوردون هذه الاعتراضات كشبه وينقلونها دون الرد عليها ، وزادوا من مخيلاتهم ما شاءت لهم أوهامهم وسنورد كل شبهة ونتبعها بالرد عليها :

(أولا) من الشبه قالوا كيف يكون جمع القرآن عن ملأ من الصحابة واتفاقهم مع أن عبد الله بن مسعود وهو ذو المكانة العظمى في الاسلام وله السوابق الجليلة ، قد كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف وقال : يامعشر المسلمين أعزل عن نسخ المصاحف ، ويتولاه رجل والله لقد أسلمت ، وانه لفي صلب رجل كافر ؛ يريد زيد بن ثابت، فهذا يدل على أنه لم يكن موافقا على هذا الجمع .

(ويجاب) بأن قول ابن مسعود هذا لا يفيد إلا أنه كان يرى أنه أحق بالتقديم في هذا الشأن من زيد بن ثابت رجاء زيادة المثوبة في جمع القرآن ولم يبد منه ما يدل على عدم الموافقة على جمع القرآن ولا شك في أنه بعد زوال الغضب عنه عرف حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ وبقي على موافقتهم وترك الخلاف ؛ كيف

ولم يكن اختيار زيد من جهة أبى بكر وعمر وعثمان إلا لأنه كان أحفظ للقرآن . ولما اجتمع فيه من الصفات التى تؤهله لهذا المنصب العظيم، أنظر إلى قول أبى بكر له «إنك رجل شاب عاقل ، ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ » فقد وصفه فى هذه الجمل بأربعة أوصاف هى التى يجب توفرها جميعها فيمن يعهد إليه بهذا العمل الجسيم والأمر الخطير وهى «الشباب» المقتضى للقوة والصبر والجلد «والعقل» الذى هو جامع الفضائل «والأمانة وعدم التهمة» وهى مجمع مكارم الدين والدنيا «وكتابة الوحى» لرسول الله ﷺ «وبها يتم التوثق والاطمئنان ومع ذلك فقد ضم اليه عثمان ثلاثة من أوثق «القراء» وأعلمهم وهذه المزايا مجتمعة لا تقتضى أفضلية زيد على عبد الله بن مسعود ولا على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وإنما تقتضى أهليته التامه لما عهد إليه به

(ثانيا) من الشبه قيل : كيف يكون القرآن كله متواتراً مع أن زيد بن ثابت قال فى أثناء ذكره لحديث جمع القرآن فى الصحف وهو الجمع فى عهد أبى بكر «فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره ، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم إلى آخرها » وقال فى ذكر جمع القرآن فى عهد عثمان فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه»

فهذا الذى نقل عن زيد يدل على أنه اعتمد فى بعض آيات القرآن على خبر الواحد الذى لا يتحقق به التواتر وذلك ينافى ما هو مقرر من أن القرآن كله جملة وتفصيلا منقول بالتواتر المفيد للقطع .

(ويجاب) بأن ما نقل عن زيد بن ثابت لا ينافى تواتر القرآن جملة وتفصيلا لأنك قد علمت أن الاعتماد فى جمع القرآن كان على المصدرين معا الحفظ والكتابة والغرض من الاعتماد على الكتابة التوثق بأنه مما كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلا فمجرد الحفظ كاف فى النقل إذا بلغ حد التواتر (فمعنى) قول زيد فى الحادثتين « لم أجدها عند غيره » أى لم أجدها مكتوبة وذلك لا ينافى أنها كانت محفوظة بدليل قوله فى الحادثة الثانية «فقدت آية كنت أسمعها من رسول الله ﷺ» فهو كان يذكرها ويذكر أنه سمعها ولكنه يبحث عن كونها مكتوبة عند أحد ولم يشترط أحد التواتر فى الكتابة بمعنى أنها تكون مكتوبة عند جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب بل التواتر مشترط فى الرواية من الحفظ (سلمنا) أن خزيمة وأبا خزيمة هما اللذان كانا يحفظان ما ذكرا فلا يدل ذلك على عدم سماع جمع كثير يؤمن تواطؤهم على الكذب لها من رسول الله ﷺ وإنما كان ذلك غائبا عن أذهانهم فلما ذكر كل من خزيمة وأبى خزيمة ما ذكر تذكر الصحابة ذلك وأقروه حتى كان متواترا يفيد العلم القطعى وهو المطلوب

(ثالثا) من الشبه قيل إن القرآن قد زيد فيه ما ليس منه ويدل على ذلك ما ورد أن عبد الله بن مسعود كان لا يكتب المعوذتين فى مصحفه

وفى رواية كان يحذف المعوذتين من مصاحفه وعلى ذلك فيكون القرآن قد زيد فيه ما ليس منه وهو المعوذتان الاثنتان لم يكتبهما ابن مسعود فى مصحفه بل ورد أنه أنكر كونهما من كتاب الله .

ويجاب عن ذلك بوجوه

١) لا نسلم صحة تلك الروايات عن عبد عبد الله بن مسعود فلا يعول عليها

٢) على فرض صحتها عنه فان عدم إثباتها فى المصحف لا يستلزم إنكار كونهما من القرآن لجواز أن يكون تركهما اعتمادا على الحفظ ويحمل لفظ كتاب الله فى قوله إنهما ليستا من كتاب الله على المصحف

٣) على فرض صحة إنكار ابن مسعود قرآنيتهما فهى رواية آحاد عن ابن مسعود ولا تعارض القطعى الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقله الصحابة بالتواتر وهو كونهما من القرآن

٤) على فرض صحة ما روى عن ابن مسعود أيضا فمخالفته غير قادحة فى العلم والقطع بكونهما من القرآن ، لأنه ليس المعتبر فى العلم بصحة النقل والقطع على ثبوته أن لا يخالف فيه مخالف وإنما المعتبر فى ذلك مجيئه عن قوم يثبت بهم التواتر وتقوم بهم الحجة .

٥) من الشبه قيل إن القرآن نقص منه ما كان بعض الصحابة يكتبه فى مصحفه وذلك مثل ما نقل عن أبى بن كعب أنه كتب فى مصحفه سورتين تسميان سورتى الخلع والحفد كان يقنت بهما وهما اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثنى عليك الخير ولا نكفرك ونخلع

ونترك من يفجرك اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد واليك نسعى ونحفد نخشى عذابك ونرجو رحمتك إن عذابك بالكفار ملحق، فهذه الرواية بحسب ظاهرها تدل على أن القرآن لم يجمع كله وأنه قد حذف منه بعض سور وآيات .

« ويجاب عن ذلك بوجهين : (١) لا نسلم أنهما من القرآن لأن إثبات أبى بن كعب لهما فى المصحف لا يستلزم كونهما من القرآن كما أن القنوت بهما منه فى الصلاة لا يفيد ذلك لأنك قد علمت مما تقدم أن المصاحف فى الأول لم تكن قاصرة على القرآن بل كان بعضها مشتملا على بعض تغييرات وتأويلات وعلى منسوخ التلاوة وعلى دعاء فكان الجمع فى عهدى أبى بكر وعثمان خاصا بالقرآن مع تجريد الصحف والمصاحف مما ليس منه .

٢) على فرض أن أبيا أثبتهما فى المصحف على أنهما من القرآن فهو خبر آحاد لا تقوم به الحجة فى إثبات القرآن لأن العمدة فيه النقل المتواتر المفيد للقطع ، على أن ذلك لم يصح عنه وإنما الذى روى عنه أنه أثبته فى مصحفه وقد أثبت فى مصحفه ما ليس قرآنا من دعاء وتأويل «والتنبه قاعدتان» يجب التثبتة لهما وهما العمدة فى دفع كل شبهة تستند إلى رواية زيادة أو رواية نقص من القرآن فتجب ملاحظتهما وهما : «أولا» كل رواية آحادية تفيد انكار شيء من القرآن الذي ثبت بالتواتر لا تقبل لأن الآحادى لا يعارض القطعى . «ثانيا» كل رواية آحادية لا تقبل فى إثبات شيء من القرآن لأن العمدة فى ثبوته التواتر

فلا يقبل فيه الآحاد وإذ قد علمت هـذا فكل شبهة يتمسك بها للطاعنون من هذا القبيل فهذا طريق ردها والله أعلم.

خامساً : من الشبهة : طعن بعض المبشرين بدعاوى كاذبة زعم فيها أن القرآن سقط منه شيء وزيد فيه شيء واستند إلى الأمور الآتية خلاصتها :

(١) ما ورد في الحديث أن محمداً ﷺ قال: رحم الله فلاناً لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أسقطتهن ويروى أنسيتهن (٢) ما جاء في سورة الأعلى «سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله» وزعم هـذا الطاعن : أنه أنسي آيات لم يتفق له من يذكره اياها (٣) قال إن الصحابة قد حذفوا من القرآن ما رأوا المصلحة في حذفه فمن ذلك آية المتعة أسقطها على بتة وكان يضرب من يقرؤها «٤» قال هذا الزاعم إن كثيراً من آياته لم يكن لها من قيد سوى تحفظ الصحابة لها وكان بعضهم قد قتلوا في المغازي وحروب خلفائه الأولين وذهب معهم ما كانوا يحفظونه قبل أن يوعز أبو بكر إلى زيد بن ثابت بجمعه فلم يستطع أن يجمع سوى ما يحفظه الأحياء وادعى أن بعض ما كان مكتوبا ضاع «٥» ادعى هذا الطاعن أن الحجاج لما قام بنصرة بني أمية حذف من القرآن ما كان قد نزل فيهم وزاد فيه أشياء ليست منه وكتب ستة مصاحف جديدة نعم أنه وجه بها إلى مصر والشام ومكة والمدينة والبصرة والكوفة تولفها لبني أمية . «٦» زعم هذا الطاعن أن آية «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل إلى وسيجزي الله الشاكرين» من كلام أبي بكر

قالها يوم السقيفة وزيدت عند جمع القرآن وكذا آية «واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى» من كلام عمر وزيدت فى القرآن عند جمعه هذا خلاصة ما يقوله ذلك الطاعن وللرد عليه نقول :

١ - ان الحديث الذى أورده قد زاد فيه ما لم يرو عن النبى صلى الله عليه وسلم والذى روى هو أن عباد بن بشار كان يقرأ أمام النبى صلى الله عليه وسلم والنبى صلى الله عليه وسلم يسمعه فقال النبى صلى الله عليه وسلم (لقد أذكرني كذا وكذا آية فى سورة كذا) وليس فى ألفاظ الحديث (رحم الله فلانا) المشعر بأنه مات ولا لفظ «أسقطتهن» أو «أنسيتهن» المشعر بالنسيان وبهذا نعلم مقدار أمانته فى النقل ولفظ أذكرتهن لا يقتضى النسيان بل غاية ما يدل أنه كان غائبا عن ذهنه ثم تذكره ومن المقرر المعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يقره الله على نسيان شىء من القرآن أو أصول الدين أو الواجبات

٢ - ان ما تمسك به هذا الزاعم من دلالة الآية على النسيان فهو زعم من لم يعرف سبب نزول الآية ولا معناها، أما سببها فان النبى صلى الله عليه وسلم كان يتذكر القرآن فى نفسه مخافة أن ينسى فأزال الله خوفه وأنزل عليه «سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله» وأما معناها فهو سنعلمك القرآن حتى لا تنساه والغرض من الاستثناء تعريفه صلى الله عليه وسلم أن عدم النسيان من فضل الله تعالى واحسانه وتعريف أمته ذلك حتى لا يخرجوه صلى الله عليه وسلم من مقام العبودية دائما ومجرد الاستثناء لا يدل على وقوع النسيان بل النسيان لم يقع

لعميم المشيئة ويدل على ذلك قوله تعالى (ان علينا جمعه وقرآنه) أى جمعه فى صدرك وقراءته على لسانك .

«٣» قوله ان الصحابة قد حذفوا ما رأوا المصلحة فى حذفه الخ قول من لم يعرف عناية الصحابة وحرصهم على القرآن وبعد معرفة القاعدتين السابقتين فى اثبات شيء من القرآن أو انكار شيء لا نحتاج الى رد خاص بهذه الشبهة

«٤» قوله ان كثيرا من آياته لم يكن لها من قيد سوى تحفظ الصحابة الخ

ونحن نقول الذى بقى من الحفاظ أكثر ممن مات فقد كان موجودا من القراء من تقوم بهم الحجة ويحصل بهم التواتر كما هو مقتضى قول عمر « واخشى ان يستحر القتل بالقراء فى المواطن » وقوله وكانت كتابته غير منتظمة ان اراد به انه لم يكن مرتب السور والآيات فسلم وإن اراد انه لم يكن مكتوبا جميعه فممنوع لما بيناه فيما تقدم انه كتب جميعه فى عهد النبى ﷺ بأمره وكان الغائب وقت نزول الوحى إذا حضر كتب وحفظ

٥) دعوى أن الحجاج زاد أو نقص من القرآن،دعوى لا وجود لها إلا فى خيال قائلها،إذ لم ينقل فى أى تاريخ من التواريخ ما يشير إلى ذلك وكيف يكون ذلك والتاريخ أحصى على الحجاج أكثر أفعاله وأقواله فكيف يفعل أمرا عظيما له خطره ويعظم أثره .

٦) زعمه بأن آية « وما محمد إلا رسول الخ» من كلام أبى بكر وأن آية

«واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى» من كلام عمر وزيدتا فى القرآن زعم باطل واجتراء على الحق ولو نظر ذلك الطاعن فى بعض كتب التفسير لأغنانا المؤنة فى حكاية سخفه والرد عليه فان هذه الآية الأولى نزلت يوم أحد لما أشيع أن النبى صلى الله عليه وسلم قتل فان أبا بكر رضى الله عنه لما رأى القوم عمهم الحزن والأسى لما صدموا بوفاة الرسول الاعظم ﷺ ذكرهم بهذه الآية التى كانت سببا فى أنهم ثابوا إلى رشدهم واسترجعوا الى ربهم ولم تكن من مقول أبى بكر وإنما هى من كلام رب العالمين فاين يوم أحد من يوم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، واما قول عمر فانه كان من باب التمنى بقوله لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى فنزل الأمر بذلك بقوله تعالى «واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى» فاين أسلوب التمنى من أسلوب الأمر .

سادسا) من الشبه ما نقله الألوسى عن بعض الشيعة والملاحدة ما خلاصته أن عثمان بل أبا بكر وعمر حرفوه «أى القرآن» وأسقطوا كثيرا من آياته وسوره وقالوا إن القرآن الذى نزل به جبريل سبع عشرة الف آية، وأن سورة لم يكن كانت مشتملة على اسم سبعين رجلا من قريش بأنسابهم وآبائهم وأن سورة الأحزاب كانت مثل سورة الانعام، أسقطوا منها فضائل البيت وأن سورة الولاية اسقطت بتمامها وغير ذلك من خرافاتهم «ولذا تبرأ منه» بعض علمائهم قال الطبرى فى مجمع البيان اما الزيادة فيه اى القرآن فمجمع على بطلانها واما النقصان فيه روى عن قوم من اصحابنا وقوم من حشوية العامة والصحيح خلافه

ومع كون هذه الشبهة واهية متداعية من تلقاء نفسها نرد عليها بإيجاز فنقول) أيها المتشيعون قد صار الأمر فى الخلافة إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقد دانت له الأقطار كلها عدا مصر والشام والمصاحف التى جمعها عثمان تتلى أكان يعلم أن القرآن حذف منه الشيء الكثير ويسكت عليه وهو الامام المعصوم فى زعمكم أم بحثتم أنتم بجهلكم تعترون ثم صار الأمر إلى ابنيه الامام الحسن ومصاحف عثمان كذلك فقد ظلت دولة أهل البيت بعد عثمان قائمة أربع سنوات وبضعة شهور فكيف يسكتون على حذف ما يخصهم من القرآن ولم يرتفع لهم به صوت ولم يسمع لهم فيه مقال وبهذا تعلم أن هذه الشبهة كالتى قبلها لا أساس لها والله الهادى إلى سواء السبيل ؛ ومن أمعن النظر فيما تقدم سهل عليه رد كل شبهة من هذا القبيل والله أعلم .

(٨) « ترتيب آيات القرآن وسوره ونماذج من الروايات فى ذلك وذكر الشبه الواردة وردها »

« بيان معنى الآية والسورة وما يتعلق بهما »

« الآية » لغة وردت فى القرآن بمعنى العلامة وذلك فى قوله تعالى « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم » أى علامة ملكه وبمعنى العبرة فى قوله تعالى « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » أى عبرة لمن بعدهم » وبمعنى الدليل فى مثل قوله تعالى « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » أى

دلائل قدرته» وفى الاصطلاح «طائفة من القرآن ذات مبدأ ومقطع مندرجة فى سورة» وآخرها يسمى فاصلة إنما سميت آية لأنها علامة على نفسها بانفصالها عن الآية التى قبلها والتى بعدها .

«وآيات القرآن كلها توقفية أى لا تعلم إلا بتوقيف من الشارع قال الزمخشرى الآيات علم توقيفى لا مجال للقياس فيه ولذلك عدوا «الم» آية حيث وقعت «والمص» ولم يعدوا «المر والر» وعدوا «حم» آية فى سورها «وطه ويس» ولم يعدوا «طس» وأخرج الامام احمد فى مسنده عن ابن مسعود قال : «أقرأنى رسول الله ﷺ سورة من الثلاثين من آل حم قال يعنى الأحقاف» قال كانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين سميت الثلاثين ، وقال ابن العربى ذكر النبى ﷺ «أن الفاتحة سبع آيات وسورة الملك ثلاثون آية»

«عدد آيات القرآن» أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك فمنهم من لم يزد وهو أحد قولى المدنيين ومنهم من قال ومائتا آية وأربع آيات وهو قول البصريين وقيل وأربع عشرة فى أحد قولى المدنيين ، وقيل وتسع عشرة وهو قول المكيين ، وقيل وخمس وعشرون وهو قول أهل الشام ، وقيل وست وثلاثون وهو قول الكوفيين .

«والسبب فى الاختلاف فى عدد الآيات» أن النبى ﷺ كان يقف على رؤس الآى للتوقيف فاذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة .

وقد اختلفت آيات القرآن الكريم فى الطول والقصر وأطول آية فى القرآن آية الدين وأقصر آية «يس»

(فوائد معرفة الآيات)

يترتب على معرفة الآى وعددها أحكام فقهية منها اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فانه يجب عليه بدلها سبع آيات ومنها معرفة الوقف ومنها أن الاجماع منعقد على أن الصلاة لا تصح بنصف آية ومنها أن الاعجاز لا يقع بأقل من ثلاث آيات قصار أو آية طويلة تعادلها وغير ذلك من الفوائد .

السورة

هى آيات جمعت وقرنت بعضها إلى بعض حتى تمت وكملت وبلغت فى الطول المقدار الذى أراده الله تعالى ثم فصل بينها وبين سورة آخر بسم الله الرحمن الرحيم ولا تكون إلا معروف المبتدأ معلوم المنتهى واشتقاقها من سور المدينة والبناء قيل لأن السور بوضع بعضه فوق بعض حتى ينتهى إلى الارتفاع الذى يراد فكذا السورة وضعت فيها آية إلى جنب آية حتى بلغت فى عدد الآى المبلغ الذى أراده الله تعالى «وقيل» سميت سورة لما فيها من العلو والرفعة من السور لعلوه وارتفاعه وقيل لاحاطتها بآياتها كما أن سور المدينة محيط بالمساكن والأبنية .

ومعرفة سور القرآن كلها توقيفية كمعرفة آياته وسور القرآن تختلف بالطول والقصر فأطولها سورة البقرة وأقصرها سورة الكوثر وقد قسمها العلماء إلى أربعة أقسام وهى :

١) « الطوال » وهى سبع البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والسابعة قيل الانفال وبراءة لعدم الفصل بينهما بالبسملة وقيل يونس

٢) « المئون » وهى التى تزيد آياتها عن مائة أو تقاربها .

٣) « المثاني » وهى السور التى تقارب المئى فى عدد الآيات .

٤) «المفصل» وهو ما عدا ذلك وأوله الحجرات على أرجح الأقوال وهو أقسام ثلاثة طوال المفصل وهى من أول الحجرات إلى سورة البروج وأوساطه من سورة الطارق إلى سورة لم يكن وقصاره من سورة إذا زلزلت إلى آخر القرآن .

« والحكمة » فى تسوير القرآن سورا تحقيق كون السورة معجزة بمجردها معجزة وآية من آيات الله والاشارة إلى أن كل سورة نمط مستقل فسورة يوسف تترجم عن قصته وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وأسرارهم إلى غير ذلك والحكمة فى كون سوره طوالا وقصارا التنبيه على أن الطول ليس من شروط الاعجاز فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهى معجزة إعجاز سورة البقرة ثم ظهرت لذلك حكمة أخرى فى تعليم القرآن وهى التدريج من السور القصار إلى ما فوقها تيسيرا من الله على عباده لحفظ كتابه وهناك فوائد أخرى.

«ترتيب آيات القرآن»

ترتيب الآيات فى سورها توقيفى ثابت بالوحى وبأمر رسول الله ﷺ فقد كان ﷺ يقول ضعوا آية كذا فى موضع كذا وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ وقد ترادفت النصوص على كون ترتيب الآيات توفيقيا . ووقع الاجماع على ذلك ، أما الاجماع فنقله غير واحد منهم الزركشى فى البرهان ، وأبو جعفر بن الزبير فى مناسباته ، وعبارته ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف فى هذا بين المسلمين اه وأما النصوص «فمنها» ما أخرجه عن ابن الزبير قال قلت لعثمان « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها قال يابن أخى لا أغير شيئا من مكانه) قال ابن حجر: قوله فلم تكتبها أو تدعها كذا فى الأصول بصيغة الاستفهام الانكارى كأن قال لم تكتبها وقد عرفت أنها منسوخة ، أو قال لم تدعها أى تتركها مكتوبة وهو شك من الراوى أى اللفظين قال ثم نقل رواية أخرى عن الاسماعيلى بصيغة لم تكتبها وقد نسختها الآية الأخرى وفى جواب عثمان هذا دليل على أن ترتيب الآى توقيفى وكأن عبد الله بن الزبير ظن أن الذى ينسخ حكمه لا يكتب فأجابه عثمان بأن ذلك ليس بلازم والمتبع فيه التوقيف عن النبى صلى الله عليه وسلم .

(ومنها ما أخرجه) الامام أحمد عن عثمان بن العاص قال كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه سلم ؛ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة

« إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء إلى آخرها فهذا الحديث صريح فى أن جبريل علم النبى صلى الله عليه وسلم موضع هذه الآية من سورتها

«ومنها» ما رواه مسلم عن عمر قال ما سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن شىء أكثر مما سألته عن الكلالة « حتى طعن بإصبعه فى صدرى وقال تكفيك آية الصيف التى فى آخر النساء .

«ومنها» ما رواه البخارى عن أبى مسعود أنه قال : قال النبى ﷺ «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه» والآيتان هما آمن الرسول إلى آخر السورة وآخر الآية الأولى المصير ومن ثم إلى آخرها آية واحدة وأبو مسعود هو عقبة بن عمرو البدرى .

وقد وردت نصوص إجمالية فى ذلك : مثل ما ثبت من أنه ﷺ قرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء وسورة الأعراف وسورة الم تنزيل وهل أتى وغيرها وكل ذلك وارد فى الصحيحين أو فى أحدهما وكان ﷺ يقرأ السور على ترتيبها المعروف الآن فدل ذلك كله على أن ترتيب الآيات توقيفى وقد أجمعت عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

ترتيب السور

ترتيب السور على ما هو عليه الآن قد اختلف فيه على ثلاثة أقوال «الأول» وهو قول الجمهور إنه بتوقيف من النبى ﷺ فلم توضع سورة فى مكانها من المصاحف الموجودة الآن إلا بأمر النبى ﷺ وتعليمه أو برمزه على حسب ما سمعوا من تلاوته صلى الله عليه وسلم ، واستدل

الجمهور بأن الصحابة أجمعوا على المصحف الذى كتب فى عهد عثمان ولم يخالف منهم أحد حتى من كان عنده مصاحف مكتوبة على خلاف ترتيبه كما سنذكره بعد ؛ فلو لم يكن ذلك بالتوقيف بل بالاجتهاد ولحصل من أصحاب المصاحف الأخرى المخالفة فى الترتيب مايقتضى تمسكهم بترتيب مصاحفهم، ولكن عدولهم عنها وعن ترتيبها بل واحراقها دليل على أن الأمر ليس للاجتهاد فيه مجال لأنه لا اجتهاد مع النص والتوقيف، كيف وقد كان الواحد منهم إذا رأى من الخليفة أمراً مخالفا لاجتهاده من الأمور الاجتهادية بادر إلى إعلان رأيه ومعارضة الخليفة ؛ فكيف بهذا الأمر العظيم الذى هو المرجع الأعلى لجميع المسلمين ، ولا يشترط أن يكون التوقيف من النبى ﷺ بنص صريح بل قد يكون بالفعل أو الرمز ، فلا بد للاجماع من مستند ولا يشترط ظهوره ولا ذكره ومع ذلك فقد وردت آثار تدل على التوقيف من النبى ﷺ فقد روى الامام احمد وأبو داود عن حذيفة الثقفى «قال كنت فى الوفد الذين أسلموا من ثقيف الحديث وفيه فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم طرأ على حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه . فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قلنا كيف تحزبون القرآن؟ قالوا نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور . واحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل من ق حتى نختم» فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو فى المصحف الآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، «ومما يدل أيضا» على أنه توقيفى كون الحواميم

وتبت ولاء أى متتابعة ولم ترتب المسبحات ولاء بل فصل بين سورها بسورة «قد سمع والممتحنة والمنافقون» ثم فصل بين طسم الشعراء وطسم القصص بطس مع أنها أقصر منها .

ولو كان الترتيب اجتهاديا لما حصل الفصل بين المماثلات والمتقاربات من السور في الافتتاح مع التناسب فى الطول والقصر وقد أيد كثير من العلماء هذا القول فقد قال أبو بكر الانبارى أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرقه فى بضع وعشرين سنة فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جوابا لمستخبر ويقف جبريل النبى صلى الله عليه وسلم على موضع السورة والآيات فاتساق السورة كاتساق الآية والحروف كله من النبى صلى الله عليه وسلم فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن ، وقال أبو جعفر النحاس المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم لحديث واثلة « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال » .

وقال ابن الحصار ترتيب السور ووضع الآيات فى مواضعها ، إنما كان بالوحى ، وأخرج بن أشته فى كتاب المصاحف ، من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسأل ، لم قدمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة وإنما أنزلتا بالمدينة : فقال : قدمتا ، وألف القرآن على علم ممن ألفه به ومن كان معه فيه ، واجتماعهم على علمهم بذلك ، فهذا مما ينتهى إليه ، ولا يسأل عنه [illegible]

« القول الثانى : »

أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن باجتهاد من الصحابة وممن قال بهذا الرأى القاضى أبو بكر الطيب فى أحد قوليه ، واستدل القائلون به باختلاف ترتيب مصاحف الصحابة قبل الجمع فى عهد عثمان فلو كان ترتيب السور توقيفيا لما اختلفت مصاحفهم فى ترتيب السور ، لكنها قد اختلفت وبيان ذلك كما ثبت فى الروايات أن مصحف أبى كان مبدوءا بالحمد ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام وفى مصحف ابن مسعود البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأعراف ثم الأنعام ومصحف على كان أوله اقرأ ثم المدثر ثم نون ثم المزمل ثم تبت ثم التكوير وهكذا فهذا الاختلاف دليل على أن ترتيب السور كان باجتهادهم

« وأجيب » عن هذا الدليل بمنع الملازمة فيه لأن الاختلاف ليس دليلا على أنه ليس توقيفيا وذلك لأن مصاحفهم لم تكن مصاحف تلاوة بل كانت مصاحف علم وتأويل بدليل أنهم أثبتوا فيها ما روى آحادا وما نسخت تلاوته وبعض أدعية وبعض تأويلات لبعض القرآن لذا لم تكن تلك المصاحف حجة فى اثبات القرآن ولهذا ترك منها ما هو مخالف للمصاحف العثمانية ولم يعول عليها فى زيادة أو نقص منها فكذا لم يعول عليها فى ترتيب السور فالذى سوغ ترك ما فيها من مخالفة المصاحف العثمانية من نقص أو زيادة سوغ ترك ترتيبها المخالف لها والمسوغ لذلك أن الاعتماد فى جمع المصحف على ما يشهد

القطع بالقرآنية لفظا ونظاما وترتيبا ، وما فيهما من مخالفة لم يثبت بهذا الطريق ويدل لهذا أن أصحاب المصاحف أنفسهم قد وافقوا على مصاحف عثمان وما فيها من لفظ وترتيب وترك ما سواها فلو كان بالاجتهاد لظلوا على اجتهادهم وبهذا ظهر بطلان هذا القول

«القول الثالث» أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم وترتيب بعضها كان باجتهاد من الصحابة ومال القاضي أبو محمد بن عطية إلى هذا القول ، فقال إن كثيرا من السور قد علم ترتيبها في حياة النبي ﷺ ، كالسبع الطوال والحواميم والمفصل وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده.

واستدل أصحاب هذا القول بما وقع بين ابن عباس وعثمان بشأن سورتي الانفال والتوبه وجعلها في الطوال وعدم الفصل بينهما بسطر «بسم الله الرحمن الرحيم» فقد روى أحمد والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس «قال قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الانفال وهي من المثانى وإلى براءة وهي من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما ، سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال ، فقال عثمان ، رضى الله عنه ، كان رسول صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا أنزل عليه شيء يدعو بعض من يكتب فيقول ضعوا هذه الآيات ، في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الانفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت

أنها منها. فقبض رسول الله صلى الله عليه ولم يبين لنا انها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهما فى السبع الطول ، فهذا يدل على أن ترتيب الانفال مع التوبة كان باجتهاده لعدم البيان فيهما وأما ماعداهما فبتوقيف كما يدل عليه الحديث «وأجيب» عن هذا الدليل بوجهين.

(١) إن هذا الحديث غير صحيح لأن الترمذى الذى هو أحد من خرجه قال فيه إنه حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عن يزيد الفارسى عن ابن عباس ويزيد هذا مجهول الحال فلا يصح الاعتماد على حديثه الذى انفرد به فى ترتيب القرآن.

٢) على فرض صحته يجوز أن عثمان حين اخباره لابن عباس لم يكن عنده شيء مسموع بشأن الترتيب بين براءة والانفال فلا ينافى أنه علم بعد ذلك بدليل موافقة أبى بن كعب وغيره من أصحاب المصاحف على ترتيب مصحف عثمان فلو لم يكن عنده علم بذلك لما تركوا ترتيب مصاحفهم ولما وافقوه فى ذلك إذا كان الترتيب اجتهاديا لأنه ليس للمجتهد أن يقلد مجتهدا آخر كما هو مقرر فى الأصول وبهذا قد علمت ما فى هذا الدليل وقد جعل الزركشى فى البرهان الخلاف لفظيا بحمل قول من قال إن ذلك كان باجتهاد الصحابة على أن المراد أنه لم يكن مأخوذا من صريح قول النبى صلى الله عليه وسلم وهو لا ينافى أنه مأخوذ من رمزه وإشارته به لأصحابه، وحمل قول من قال إنه توقيفى على أن ذلك كان بتعليم النبى صلى الله عليه وسلم وإرشاده وان ذلك بطريق

الرمز والاشارة ، لا بصريح القول والعبارة ؛ واستدل على ذلك بأن مالكا رحمه الله ، قال إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ مع قول مالك نفسه إن ترتيب السور باجتهاد منهم فلا بد أن يكون مراده بكونه باجتهاد أنهم لم يسمعوا نصا صريحا فى الكل فلا ينافى أنهم يفهمون من اشاراته ورموزه وقراءته بدليل قوله على ما كانوا يسمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم ومع ذلك سواء قلنا ان هذا الترتيب للسور توقيفى أو اجتهادى فقد وقع اجماع الصحابة عليه وهم لا يجمعون إلا عن مستند كما بينا لك سابقا والله أعلم.

ومن يقول ان ترتيب السور توقيفى لا يقول ان تلاوة القرآن فى الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقف عليه فى المصحف بل انما يجب تأليف سورة فى الرسم والخط خاصة وما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا وقالا ذلك منكوس القلب ؛ فانما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ويبتدىء من آخرها الى أولها ؛ لأن ذلك حرام محظور ، وأما قراءة سورة قبل سورة فلا شىء فيه.

وههنا شبهتان على الترتيب قد ذكرناهما وأجبنا عنهما وهما.

(الشبهة الأولى) كيف يكون ترتيب القرآن توقيفيا وقد ذكر عثمان لابن عباس أنه لم يسمع فى شأن ترتيب الانفال مع براءة شيئا كما تقدمت الرواية عنه « وقد أجبنا عن هذه الشبهة » مفصلا فيما تقدم

« الشبهة الثانية » اختلاف مصاحف الصحابة ينافى التوقيف

والجواب عن ذلك تقدم مبسوطا فى إبطال أدلة المخالفين ولنقتصر فى بحث الترتيب على ما ذكرنا خوف التطويل .

٩ - نقل الكتابة

﴿ إلى قريش قبيل البعثة ﴾

كتابة القرآن الكريم .

يحسن بنا أن نقدم بين يدى هذا البحث مقدمة تتضمن كيف تعلمت قريش الكتابة ومن أى الجهات نقلت اليهم ؛ - المشهور عند أهل العلم ما رواه ابن الكلبى عن عوانة قال أول من كتب بخطنا هذا وهو الجزم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة أى وكذا عامر بن جدرة وهم من عرب طىء تعلموه من كاتب الوحى لسيدنا هود عليه السلام ثم علموه أهل الأنبار ومنهم انتشرت الكتابة فى العراق الحيرة) وغيرهما فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو كيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم فى بلاد العراق فتعلم حرب منه الكتابة ثم سافر معه بشر الى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبى سفيان فتعلم منه جماعة من أهل مكة فبهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبيل الاسلام ولذا قال رجل كندى من أهل دومة الجندل يمن على قريش بذلك

لا تجحدوا نعماء بشر عليكم ... فقد كان ميمون النقيبة أزهرا

أتاكم بخط الجزم حتى حفظتموا ... من المال ما قد كان شتى مبعثرا

فأجريتم الأقلام عودا وبدأة ... وضاهيتمو الكتاب كسرى وقيصرا

وأغنيتم عن مسند الحي حمير ... وما زبرت فى الصحف أقلام حميرا

وانما قال أتاكم بخط الجزم كما قال عوانه بخطنا هذا وهو الجزم لأن الخط الكوفى كان قبل وجود الكوفة يسمى الجزم لكونه جزم أى اقتطع وولد من المسند الحميرى والذى اقتطعه مرامر وصاحباه فقال هذا السيوطى وغيره ؛ وقيل ان حرب بن أمية تعلم الخط من عبد الله بن جدعان يدل لذا ما ذكره أبو عمرو الداني بسنده الى زياد بن أنعم قال قلت لعبد الله بن عباس معاشر قريش هل كنتم تكتبون فى الجاهلية بهذا الكتاب العربي تجمعون فيه ما اجتمع وتفرقون فيه ما افترق هجاء بالألف واللام والميم والشكل والقطع وما يكتب به اليوم قبل أن يبعث النبى ﷺ قال نعم قلت فمن علمكم الكتابة قال حرب بن أمية قلت فمن علم حرب بن أمية قال عبد الله بن جدعان قلت فمن علم عبد الله ابن جدعان قال أهل الأنبار قلت فمن علم أهل الأنبار قال طارىء طرأ عليهم من أهل اليمن من كندة قلت فمن علم ذلك الطارىء قال الخلجان بن الموهم كان كاتب هود نبى الله بالوحى عن الله عز وجل اهـ وعلى كل فقد اتفق معظم مؤرخى العرب على أن الخط دخل إلى مكة بواسطة حرب بن أمية بن عبد شمس وأنه تعلمه فى أسفاره كما يدل عليه ما تقدم .

وأما الخط فى المدينة المنورة فقد ذكر أصحاب السير أن النبى صلى الله عليه وسلم دخلها وكان فيها يهودى واحد يعلم الصبيان الكتابة

وكان فيها بضعة عشر رجلا يعرفون الكتابة منهم زيد بن ثابت الذى تعلم كتابة اليهود بأمر النبي ﷺ والمنذر بن عمرو وأبي بن وهب وعمرو ابن سعيد.

وقد اشتهر بالكتابة من الصحابة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى وطلحة وأبو عبيدة من المهاجرين وأبى بن كعب وزيد بن ثابت من الأنصار

ومما تقدم تعلم أن وجود الكتابة فى قريش كان قبيل بدء الاسلام بزمن يسير فكان ذلك إرهاصا لرسالة نبينا محمد ﷺ ونزول الوحى عليه لتكون الكتابة من أسباب حفظ القرآن الكريم من الضياع والنسيان فضلا عن حفظه فى الصدور لتستكمل للقرآن الكريم الموجودات الأربعة فى الأذهان والعيان والعبارة والكتابة وقد كان وجود الكتابة فى مكة والمدينة قبيل الاسلام من أسباب حفظ القرآن الكريم الذى تكفل الله بحفظه فيسره فى الألسنة وحفظته الصدور ويسر الأسباب لثباته بكتابته وكذلك كانت الكتابة من الأسباب العظيمة لتبليغ الرسالة إلى الملوك والقياصرة والأمراء فقد كاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم داعيا إلى الاسلام ونبذ الشرك والأوهام، ولما كان للكتابة المنزلة فى حفظ الوحى وتبليغ الرسالة كانت عناية الرسول صلى الله عليه وسلم بها شديدة لذا انتهز أول فرصة لنشر الكتابة بين المسلمين وبادر إليها فقد ذكر فى كتب السيرة أنه لما أسر المسلمون فى غزوة بدر سبعين رجلا من المشركين من قريش وغيرهم وفيهم كثير من الكتاب قبل

النبي صلى الله عليه وسلم من الأميين منهم الافتداء بالمال أما الذين يعرفون الكتابة فقد فرض على كل واحد منهم أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة فلا يطلق إلا بعد أن يتم تعليمهم وكان هذا فداؤه بدلا من المال وقيل أن هذا الفرض كان على من عجز عن الافتداء بالمال كما فى بعض الروايات وعلى كل فمنه يعلم مقدار حرص النبى صلى الله عليه وسلم على محاربة الأمية من الأمة ونشر الكتابة والقراءة بينها وقد كان هذا فى السنة الثانية للهجرة فلعمر الحق ان هذا النظام الذى وضعه الرسول الأعظم لأكبر برهان على أنه أعظم المصلحين للأمة كيف لا وهو أعظم معلم وأكبر هاد إلى سواء السبيل فمهما جهد المصلحون واجتهدوا فى دعواهم فلن يبلغوا قطرة من بحره فانه صلى الله عليه وسلم فى الوقت الذى يرى أن الأمة محتاجة إلى المال لتقوى على مكافحة عدوها ومحتاجة الى قهر عدوها بالاثخان فيهم فاذا به يرى أن تعليم الأمة الكتابة خير من المال وهو من أهم عوامل تقدمها ورقيها وظفرها بالفوز والنصر فى الحال والمآل.

وبذلك كثرت الكتابة بين المسلمين وصارت تنتشر فى كل ناحية فتحها الاسلام فى حياته ﷺ وبعده. والذين كتبوا من الصحابة كانوا الغاية القصوى فى الحذق بالهجاء وما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم «انا امة أمية لا نكتب ولا نحسب» فهو اخبار عما كان بحسب المبدأ والغالب وإذ قد علمت طرفا من حال الكتابة قبل الاسلام وبعده فلنذكر كتابة القرآن الكريم ورسمه

﴿كتابة القرآن الكريم﴾

كتب القرآن جميعه متفرقا فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم و بين يديه فى الرقاع والأكتاف والأضلاع والعسب واللخاف والظرر، «الرقاع» جمع رقعة وهى الخرقة والقطعة من الأدم «الأكتاف» جمع كتف وهو العظم المنبسط كاللوح «الأضلاع» جمع ضلع بكسر الضاد وفتح اللام فى لغة الحجاز وتسكن فى لغة تميم وهى عظم الجنبين «العسب» جمع عسيب وهو الأصل العريض من جريد النخل «اللخاف» جمع لخفة كسحاف وصحفة وهى الحجر العريض الأبيض الرقيق «الظرر» هو الحجر الذى له حد كالسكين وجمعه ظرار كما كتب فى غير هذه الأشياء لأن الورق المعروف لنا الآن لم يكن موجودا عند العرب فى زمنه صلى الله عليه وسلم

وكان من كتاب الوحى بين يديه صلى الله عليه وسلم من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأبان بن سعيد وخالد ابن الوليد وأبى بن كعب وأرقم بن أبى الأرقم ومعاوية بن أبى سفيان وثابت بن قيس وحنظلة ابن الربيع وخالد بن سعيد بن العاص وزيد بن ثابت رضى الله عنهم أجمعين وغيرهم، وقد كان صلى الله عليه وسلم يدعوا أحد كتابه ويأمره بكتابة ما ينزل عليه من القرآن يدل على ذلك أولا ماروى أنه لما نزل قوله تعالى «لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون» قال ابن أم مكتوم وعبد الله بن جحش يارسول الله إنا عميان فهل لنا رخصة

فأنزل الله تعالى «غير أولى الضرر» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ائتوني بالكتف والدواة وأمر زيدا أن يكتبها فكتبها «فقال زيد كأني أنظر إلى موضعها عند صدع فى الكتف»

«ثانيا» ما أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد «قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكتبوا عنى شيئا غير القرآن» فهذا الحديث يدل على أن القرآن كان يكتب فى عهده صلى الله عليه وسلم

«ثالثا» ما تقدم من قول أبى بكر لزيد بن ثابت «إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك قد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم» وغير ذلك من الروايات الكثيرة الدالة على أن القرآن كان يكتب بين يدى رسول الله صلى الله علية وسلم.

﴿رسم المصحف﴾

الأصل فى المكتوب أن يكون موافقا للمنطوق من غير زيادة ولا نقص ولا تغيير ولا تبديل مع مراعاة الابتداء والوقف والفصل والوصل ولكن رسم المصحف قد خولف فيه هذا الأصل ولنذكر لذلك أمثلة بقدر الايضاح من غير استقراء لجميع ما ورد

١) الحذف :

مثل حذف ألف ياء النداء نحو يا أيها الناس وحذف ألف ذلك وأولئك ومن كل علم زائد على ثلاثة مثل ألف ابراهيم واسماعيل وصالح وألف بعض جمع التصحيح لمذكر أومؤنث وحذف اللام المدغمة

فى بعض الـكلمات مثل الليل وبقائها فى كلمات أخرى وهكذا

٢) الزيادة :

مثل زيادة الألف بعد آخر الاسم المجموع نحو ملاقوا ربهم وأولوا الألباب وفى نحو مائة ومائتين والظنونا والرسولا والسبيلا وغير ذلك، وزيدت الياء فى (بأييد)

٣) الهمز :

الأصل فى الهمزة التى تقع طرفا أنها تكتب من جنس حركة ما قبلها مثل يقرأ وقد ورد فى مواضع من القرآن مخالفة لذلك الأصل تفتؤا وتتفيؤا وأتوكؤا ولا تظمؤا وما يعبؤا ويدرؤا وينشؤا ويبدؤا فانها رسمت جميعها فى المصحف بالواو وغير ذلك

٤) الفصل والوصل:

وردت بعض كلمات فى القرآن مرسومة فى المصحف تارة موصولة وتارة مفصولة مثل وصل « ألا » بالفتح وفصلها فى مواضع « أن لا » ووصل « عما » « ألا عن ما نهوا عنه

ووصل « ممن » وفصلها فى « عن من يشاء فى النور » « وعن من تولى فى النجم » ووصل « كلما » وفصلها فى « كل ما ردوا إلى الفتنة » « ومن كل ما سـألتموه » وغير ذلك مما جاء فى الرسم تارة مفصولا وتارة موصولا مثل إنما وأن لم بالفتح وأن لن وأين ما ولكى لا وفى ما وغير ذلك

٥) البـدل :

كتبت فى الرسم الألف واوا فى مثل الصلاة والزكاة والحياة والربا غير مضافاة ومشكاة والنجاة ومناة وكتب ياء فى يتوفيكم وكتبت هاء التأنيث تاء فى مواضع من القرآن وذلك مثل « رحمت » فى البقرة والأعراف وهود ومريم والروم والزخرف « ونعمت » فى البقرة وآل عمران والمائدة وابراهيم والنحل ولقمان وفاطر والطور « وسنت » فى الأنفال وفاطر وثانى غافر « وامرأت مع زوجها » « ولعنت » فى قوله فنجعل لعنت الله » وفى « والخامسة أن لعنت » « ومعصيت » فى قد سمع «وشجرت» فى إن شجرت الزقوم فى الدخان « وقرت » فى القصص « قرت عين لى ولك » « وبقيت » فى هود « بقيت الله » وغير ذلك مما كتبت فيه هاء التأنيث فى مواضع على خلاف الأصل بالتاء وفى مواضع أخرى على الأصل بالهاء

٦) « ما فيه قراءتان » وكتب على احداهما ومن ذلك مالك يوم الدين ويخادعون وتفادوهم وتظاهرون وغيرهما مما كتب فيه بلا ألف وقد قرىء بها وبحذفها وهذه الأمثله هى القواعد التى أتبعت فى رسم المصحف ولو أردنا استقراء كل نوع منها لطال بنا المقال ولكن نقتصر على ما قدمنا ليكون أدلة على أن فى رسم المصحف ألفاظا كثيرة خالف فيها الخط اللفظ وقد استوعبها علماء الرسم والقراءات مع الضبط التام

﴿آراء العلماء فى جواز مخالفة رسم المصحف وعدم جواز ذلك﴾
﴿وفى كونه توقيفيا أو اصطلاحيا﴾

قال السيوطى فى الاتقان ما نصه ، القاعدة العربية أن اللفظ يكتب بحروف هجائية مع مراعاة الابتداء به والوقف عليه وقد مهد النحاة له أصولا وقواعد وقد خالفها فى بعض الحروف خط المصحف الامام

وقال أشهب سئل مالك هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ، فقال لا ، إلا على الكتبة الأولى ، رواه الدانى فى المقنع ثم قال ولا مخالف له من علماء الأمة ؛ وقال فى موضع آخر ، سئل مالك عن الحروف فى القرآن مثل الواو والألف ، أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك ؛ قال لا ، قال أبو عمرو يعنى بالواو والألف المزيدتين فى الرسم المعدومتين فى اللفظ نحو « أولوا » وقال الامام أحمد يحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو وياء وألف أو غير ذلك ، وقال البيهقى فى شعب الايمان ، من كتب مصحفا فينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوه شيئا ؛ فانهم كانوا أكثر علما ، وأصدق قلبا ، ولسانا ، وأعظم أمانة منا فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم ، اهـ

وعلى ذلك فلا تجوز مخالفة رسم المصحف وكتابته على ما أحدث

الناس من الهجاء لأن الرسم العثمانى قد أجمع على صحته الصحابة جميعا رضى الله عنهم .

واجماعهم حجة وقد حث الرسول ﷺ على الاقتداء بهم فقد قال ﷺ « اقتدوا بالذين من بعدى أبو بكر وعمر » أخرجه الامام أحمد والترمذى وابن ماجة وفى حديث « فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى وقال ابن مسعود من منكم متأسيا فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فانكم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما وأقلها تكلفا وأقومها هديا ، وأحسنها حالا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم فى آثارهم »

ولأن كتابته عليه كانت على وفق ما كتب بين يدى الرسول ﷺ

﴿ رسم المصحف توقيفى ﴾

قد كتب القرآن كله فى عهد رسول الله ﷺ وكان هو الذى يملى زيد بن ثابت من تلقين جبريل عليه السلام ، يشهد بذلك إطباق القراء على اثبات الياء فى «واخشوني» فى البقرة وحذفها فى الموضعين من المائدة وغير ذلك مما خولف فيه بين نظائر كثيرة بالحذف والاثبات والزيادة والنقصان والتغيير والتبديل وقد ذكرنا بعضه

وذلك كله يدل على أن الكتابة توقيفية أى بارشاد من النبى ﷺ وكونه أميا لم يتعلم الكتابة لا ينافى ذلك ، لأن الاملاء بالوحى والتلقين على هذا النحو لا يستلزم تعلم الكتابة بالمعنى الذى نفى عنه ﷺ لأن

الأول إيحاء وإعلام محض بهجاء الكتابة ورقومها بدون تعلم وكسب والثانى تعلم كسبى وعمل يدوى .

﴿ القول بأنه صلى الله عليه وسلم تعلم القراءة والكتابة ﴾

إنه صلى الله عليه وسلم كان أميا فى بدء الاسلام وأول نزول القرآن كما قال تعالى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون » وأما بعد التحدى به وعجز العرب عن معارضته والاتيان بمثله فقد قيل إنه صلى الله عليه وسلم قرأ وكتب بيده الشريفة ولنذكر عبارة الالوسى فى تفسيره بنصها عند تفسير الآية المذكورة لما فيها من الفوائد ؛ قال : واختلف فى أنه صلى الله عليه وسلم هل كان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا فقيل أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة ، واختاره البغوى فى التهذيب وقال أنه الأصح ، وادعى بعضهم انه صار صلى الله عليه وسلم يعلم الكتابة بعد ان كان لا يعلمها وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية فلما نزل القرآن واشتهر الاسلام وظهر أمر الارتياب تعرف الكتابة حينئذ ، روى ابن أبى شيبة وغيره « ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ » ونقل هذا الشعبى فصدقه وقال سمعت أقواما يقولونه وليس فى الآية ما ينافيه وروى ابن ماجه عن أنس قال قال صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى بى مكتوبا على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر » والقدرة على القراءة فرع الكتابة ؛ ورد باحتمال إقدار الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام عليها ،

بدونها ، معجزة ، أو فيه مقدر ، وهو فسألت عن المكتوب فقيل الخ ويشهد للكتابة أحاديث فى صحيح البخارى وغيره كما ورد فى صلح الحديبيه « فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب ولا يحسن يكتب فكتب هـذا ماقاضى عليه محمد بن عبد الله » الحديث ، وممن ذهب إلى ذلك : أبو ذر عبده بن أحمد الهروى وأبو الفتح النيسابورى وأبو الوليد الباجى من المغاربة وحكاه عن السمانى ، وصنف فيه كتابا وسبقه اليه بن منبه ، ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ، ثم عقد له مجلس ، فأقام الحجة على مدعاه ، وكتب به إلى علماء الأطراف ، فأجابوا بما يوافقه ومعرفة الكتابة بعد أميته صلى الله عليه وسلم لا تنافى المعجزة ؛ بل هى معجزة أخرى لكونها من غير تعليم .

ورد بعض الأجلة كتاب الباجى لما فى الحديث الصحيح « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » وقال كل ما ورد فى الحديث من قوله « كتب » فمعناه أمر بالكتابة كما يقال « كتب السلطان لفلان » وتقديم قوله تعالى « من قبله » على قوله سبحانه « ولا تخطه » كالصريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقا ، وكون القيد المتوسط راجعا لما بعده غير مطرد اهـ ثم أجاب عما أورده بعض الأجلة بما حاصله مع ايضاح وزيادة

أولا : عن قوله « انا أمة أمية » فان ذلك باعتبار المبدأ أو باعتبار أكثر الأمة ضرورة أنه كان فيهم من يكتب ويحسب وهذا لا ينافى

عليهم بقاء وصف الأمية بالنسبة له ولغيره كما وقع من تعلم كثير من الأمة الكتابة فى عهده

ثانيا : كون « كتب » بمعنى أمر خلاف الظاهر وقد نقل النووى عن عياض أن قوله فى الرواية التى ذكرناها « ولا يحسن يكتب فكتب » كالنص فى أنه صلى الله عليه وسلم كتب بنفسه فالعدول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة اليه

ثالثا : لم لا يجوز أن يكون قوله تعالى « من قبله » راجعا إلى مابعد أيضا وهو « ولا تخطه » وكونه غير مطرد لا ينفى الجواز المؤيد بما ذكر من حديث الحديبية ويصير المعنى وما كنت قبل انزال تتلو كتابا وما كنت قبل انزال الكتاب تخطه بيمينك ونفى ذلك قبل نزول الكتاب لايستلزم عدم القدرة على التلاوة والخط بعده بل قد حصلت التلاوة بعد النزول فكذلك الخط ولا ضرر فيه

رابعا : تأويل حديث الاسراء المتقدم أيضا باحتمال الاقدار أو أن فيه مقدرا خلاف الظاهر أيضا من غير ضرورة

وبهذا يثبت جواز أنه ﷺ عرف القراءة والكتابة بعد نزول القرآن والتحدى به وأنه لا مانع من ذلك عقلا وإنما قلنا إن الذى ثبت « الجواز » لأن أدلة الفريقين المتخالفين التى تقدمت لا يفيد كل منها اعتقادا فى جانب الايجاب أو السلب وهذا المقام لا يكفى فيه سوى اليقين فالواجب اعتقاده أنه ﷺ كان أميا فى بدء أمره وأول نزول الوحى عليه ، أما استمرار الأمية أو انقطاعها بتعلم الكتابة فلم يقم عليه

ذليل قاطع بل كلها أدلة محتملة، وعلى كل حال فثبوت كون رسم المصحف توقيفيا لا يتوقف على تعلمه ﷺ الكتابة لأنه إن ثبت أنه تعلمها فيما بعد فظاهر وإلا فقد كان يعلمها بطريق الوحى فكان يأمر بكتابة القرآن ورسمه كما يعلمه جبريل ومع ذلك فلا نزاع فى ثبوت تقريره ﷺ على الرسم، «وتقريره على ذلك كاف فى أن الرسم توقيفى»

وقد تلخص أن رسم المصحف ثابت باجماع الصحابة وبتوقيف النبى صلى الله عليه وسلم.

﴿ القائلون بأن رسم القرآن اصطلاحى لا توقيفى ﴾

ذهب فريق من العلماء إلى أن رسم القرآن اصطلاحى لا توقيفى منهم ابن خلدون فى مقدمته وللقاضى أبو بكر الباقلاني فى الانتصار حيث قال كل منهما إن رسم المصحف كان باصطلاح من الصحابة لأنهم كانوا حديثى عهد بالكتابة.

وهذا نص عبارة القاضى الباقلانى نقلا من كتاب الابريز لابن المبارك قال «إنما فرض على الأمة الوصية فى القرآن وألفاظه؛ فلا يزيدون حرفا ولا ينقصونه ولا يقدمونه ولا يؤخرونه ويتلونه على نحو ما يتلى عليهم، وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئا إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسما بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه؛ إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف، وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وخطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه؛ ولا فى نص السنة

ما يوجب ذلك ، ويدل عليه ، ولا فى اجماع الأمة ما يوجب ذلك ، ولا دلت عليه القياسات الشرعية ، بل السنة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجها معينا ، ولا نهى أحدا عن كتابته ؛ ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ، ومنهم من كان يزيد وينقص ، لعلمه بأن ذلك اصطلاح ، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال ، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول ، وأن يجعل اللام على صورة الكاف وأن تعوج الألفات ، وأن يكتب أيضا على غير هذه الوجوه ، وساغ أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ؛ وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة وجاز أن يكتب بين ذلك ، وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة وأن الناس قد أجازوا ذلك كله وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأثيم ولا تناكر : علم أنه لم يؤخذ فى ذلك على الناس حد محدود مخصوص كما أخذ عليهم فى القراءة والأذان ، والسبب فى ذلك أن الخطوط إنما هى علامات ورسوم تجرى مجرى الإشارات والعقود والرموز فكل رسم دل على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته ، وتصويب الكاتب به على أى صورة كانت ، وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص ، وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه وأنى له ذلك ، اهـ كلام القاضى أبو بكر الباقلانى ملخصا من الابريز ؛

وبالنظر فى كلام القاضى يظهر رده بما يأتى .

«أولا» قوله «ولا فى نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه» مدفوع بما تقدم من أن القرآن جميعه كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قرر الكتاب الذين كتبوه بين يديه على كتابتهم ولا شك أن تقرير الرسول على هيئة من الهيئات الخاصة بالكتابة سنة كما أنه قد ورد أنه كان يأمر الكتاب بشكل الكتابة كما يوحى اليه جبريل وهذا سنة .

فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية رضى الله عنه «ألق الدواة وحرف القلم وانصب الباء وفرق السين ولا تعور الميم وحسن الله ومد الرحمن وجود الرحيم وضع قلمك على أذنك اليسرى فانه أذكر لك» فقد تناول أمره صلى الله عليه وسلم لمعاوية كيفية كتابة الحروف وما يجب أن تكون عليه أدواتها .

فقوله «ولا فى نص السنة الخ فى غير محله» بل قد وردت السنة بالرسم الخاص على نحو ما ذكرنا فقوله «بل السنة دلت على جواز رسمه الخ باطل لا وجه له .

«ثانيا» قوله «ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك» مردود أيضا بأن الرسم الخاص بالقرآن قد كتب بمحضر الصحابة وأقره جميعهم وكانوا أكثر من اثنى عشر الف صحابي فكان ذلك إجماعا منهم على ذلك وما ورد من أن واحدا أو اثنين خالف فى الرسم فقد تقرر الاجماع بعد موت المخالف فدعوى عدم وجود اجماع باطلة .

(ثالثا) قوله «ولذلك اختلفت خطوط المصاحف إلى قوله من غير تأثيم ولا نكير» باطل بما سبق أن نقلناه عن الامام مالك والامام أحمد والبيهقى وغيرهم من أنهم حظروا كتابته إلا على الكتبة الأولى والهجاء الأول فكيف يدعى أن القرآن كتب بخطوط مختلفه من غير تأثيم ولا نكير، بل نقل بعضهم اجماع الأئمة الأربعة على تحريم كتابته بغير خط المصحف الخاص وعلى ذلك فما قالة القاضى أبو بكر من جواز كتابة القرآن بغير الرسم الخاص وأن هذا الرسم اصطلاحي لا توقيفى قول باطل لم تقم عليه حجة وهو خلاف ما عليه الجمهور وثبت بالسنة والأجماع قال سيدى احمد بن المبارك نقلا عن شيخه سيدى عبد العزيز الدباغ فى كتاب الابريز ما نصه: وقال رضى الله عنه ما للصحابة ولا لغيرهم فى رسم القرآن العزيز ولا شعرة واحدة وإنما هو بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم، وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفه، من غير زيادة ونقصان لأسرار لا تهتدى اليها العقول، وما كانت العرب فى جاهليتها ولا أهل الايمان من سائر الأمم فى أديانهم يعرفون ذلك ولا يهتدون بعقولهم إلى شىء منه، وهو سر من أسراره خص الله كتابه به العزيز دون سائر الكتب السماويه، فلا يوجد شبه ذلك الرسم لا فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى غيرهما من الكتب السماوية، وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضا معجز، وكيف تهتدى العقول إلى سر زيادة الألف فى مائة دون فئة، وإلى سر زيادة الياء فى بأييد من قوله تعالى (والسماء

بنيناها بأييد) أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف فى سعوا من من قوله تعالى فى الحج (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم وعدم زيادتها فى سبأ من قوله تعالى « والذين سعو فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم » وإلى سر زيادتها فى قوله « فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم » وحذفها من قوله تعالى وعتو عتوا كبيرا وإلى سر زيادتها فى قوله تعالى أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح وإسقاطها فى قوله تعالى (عسى الله أن يعفو عنهم)

وبعد أن ذكر أمثلة كثيرة لاختلاف الرسم القرآنى ونظائر لذلك قال وأما قول من قال أن الصحابة رضى الله عنهم هم الذين اصطلحوا على الرسم المذكور فلا يخفى ما فى كلامه، لأن القرآن العزيز كتب فى زمانه صلى الله عليه وسلم وبين يديه على هيئة من الهيئات وحينئذ فلا يخلو ما اصطلح عليه الصحابة رضوان الله عليهم، إما أن يكون هو عين الهيئة أو غيرها فان كان عينها بطل الاصطلاح لأنه اختراع وابتداع ؛ وسبقيه التوقيف تنافى ذلك وتوجب الاتباع؛ فان نسب اتباعهم حينئذ للاصطلاح : كان بمنزلة من قال ان الصحابة اصطلحوا على أن الصلوات خمس وعلى أن عدد الركعات مثلا أربع؛ وهذا بعيد كل البعد عن الاصطلاح ،بل هو عين الاتباع ؛ وان كان ما اصطلحوا عليه غير الهيئة التى كانت بين يديه صلى الله عليه وسلم فلا يصح ذلك لوجهين.

أولهما : نسبة الصحابة وأعلام الهدى إلى مخالفة الرسول صلى

الله عليه وسلم وذلك محال ، لما تقدم من أننا أمرنا باتباعهم فلو كانوا مخالفين لما أقره الرسول صلى الله عليه وسلم لكنا مأمورين باتباعهم وفى الوقت عينه نحن مأمورون باتباع سنته صلى الله عليه وسلم فيلزم الجمع بين النقيضين وهو محال

ثانيهما : أن سائر الأمة من الصحابة وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز أن يزاد فى القرآن حرف ولا أن ينقص منه حرف ، والكتابة أحد الوجودات الأربع ، وما بين الدفتين كلام فاذا كان النبي ﷺ أمر بالكتابة على هيئة أو قرر الكتابة على هيئة ، والصحابة خالفوه فى ذلك لزم أنهم تصرفوا فى القرآن من جهة أحد وجوداته الأربعة بالزيادة والنقصان ويكون بذلك قد وقعوا فيما أجمعوا عليه هم وغيرهم على انه لا يحل لأحد فعله ويلزم أيضا تطرق الشك إلى جميع ما بين الدفتين لأننا إذا جوزنا أن تكون فيه حروف زائدة على ما فى علم النبى صلى الله عليه وسلم وعلى ما عنده وأنها ليست بوحى ولا من عند الله ولم نعلمها بعينها شككنا فى الجميع . ولئن جوزنا لصحابي أن يزيد فى كتابته حرفا ليس بوحى ، لزمنا أن نجوز لصحابى آخر نقصان حرف من الوحى إذ لا فرق بينهما وحينئذ تنحل عروة الاسلام بالكلية نعوذ بالله من ذلك ودعوى الاصطلاح تكون صحيحة لو كانت كتابة القرآن الكريم إنما حدثت فى عصرهم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وليس الأمر كذلك ، فثبت أن الرسم توقيفى لا اصطلاحى وأن النبى صلى الله عليه وسلم هو الآمر بكتابته على الهيئة المعروفة «فقات»

إنه عليه الصلاة والسلام كان لا يعرف الكتابة وقد قال تعالى فى وصفه «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون» فقال رضى الله عنه كان صلى الله عليه وسلم لا يعرفها بالاصطلاح والتعلم من الناس وأما من جهة التعلم الربانى فيعلمها ويعلم أكثر منها ؛ اه ملخصا مع زيادة وايضاح وقد علمت وجه دلالة الآية المذكورة فثبت أن رسم القرآن توقيفى وأنه لا يجوز مخالفته ولنورد بعض فوائد اتباع «الرسم المخصوص وما يترتب على مخالفته»

﴿فوائد الرسم القرآنى المخصوص﴾

«أولا» اتصال السند فى القرآن فلا يجوز أن يقرأه أحد ولا أنه يقرئه لغيره إلا بما رواه بسند متصل . فمن علم القواعد العربية ولكنه لا يتبع الأثر والرواية والسند لا يعرف قراءة القرآن على وجهها ؛ لأنه قد يحسن له العربية قراءة لم تنقل عن أحد ولم يقرأ بها أحد ؛ انظر إلى كتابة «كهيعص» و «حمعسق» و «طسم» وغيرها ، فالعالم بالعربية وحدها الذى لا يتبع رواية ولا نقلا ، لا يحسن النطق بها على وجهها من غير موقف ، وأنى له ذلك ؛ والقراءات هى العلم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها ، وذلك لا يكون بالقياس بل لابد من السماع والتوقيف «واتصال السند» من خواص القرآن العزيز بالنسبة لغيره من الكتب السماوية وبه ظل محفوظا كما وعد الله بذلك ، والرواية متبعة والقراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول . ولا شك أن الرسم المخصوص له أعظم الأثر فى اتصال السند إذ لو كانت جميع ألفاظه مكتوبة طبق النطق

بها لجرأ كثير على قراءته بدون سند ولا رواية ظنا منهم أن ذلك كاف فلا يعرفون ما فيه من مد وهمز وتخفيف، وامالة وإظهار وإدغام واخفاء وغير ذلك وبهذا ظهر أن للرسم المخصوص فائدة عظيمة .

«ثانيا» من فوائد الرسم الدلالة على أصل الحركة ككتابة الكسرة ياء والضمة واو فى نحو (ايتاء ذى القربي) (وسأوريكم) أو الدلالة على أن أصل الحرف ككتابة الصلوة والزكوه والحيوه بالواو.

«ثالثا» إفادة المعانى المختلفة بالرسم مثل وصل أمن فى قوله (أمن يمشى سويا) وفصلها فى قوله (أم من يكون عليهم وكيلا) فان المفصولة تفيد معنى بل؛ دون الموصولة

(رابعا الدلالة على بعض اللغات الفصيحة ككتابة هاء التأنيث تاء فى لغة طىء ومثل حذف آخر المضارع المعتل لغير جازم « مثل يوم يات » فى لغة هزيل .

(خامسا المحافظة على ما كان فى عهد النبى ﷺ وأجمع عليه الصحابة

المضار التى تنشأ بترك الرسم المخصوص

(أولا) ضياع كثير من اللغات الفصحى إذلو ضاع الرسم لا يمكن الاستدلال عليها بالقرآن الذى هو أصدق الحديث .

(ثانيا تطرق التحريف إلى الكتاب الشريف بتغيير رسمه الأصلى التوقيفى

(ثالثا انقطاع السند الذى هو أحد أركان القرآن وفى ذلك ضياع للقرآن وإهمال لأمره إذ رسمه الخاص هو الحصن المانع لقراءته بغير الأئمة والرواية :

(نموذج من الروايات التي أوردت شبها على كتابة القرآن)

قد تمسك بعض الطاعنين على كتابة القرآن ببعض روايات وأوردوها شبها وطار بها بعض الملاحدة فرحا لظنهم انها تفيدهم فى الطعن على كتابة القرآن وقراءته مع أن أكثرها لم يثبت من طريق صحيح وعلى فرض صحته فانه لا يعارض القطعى من القراءة التى ثبتت بالتواتر الذى يفيد العلم القطعى.

إذ العمدة فى ثبوت القرآن وقراءاته إنما هو التواتر أو السند الصحيح مع موافقة النحو والرسم كما سيأتى: فلو وردت رواية آحاد بما يخالف التواتر فانها لا تعارضه لأن الآحادى مهما كان صحيحا لا يفيد أكثر من الظن ولا يثبت به قرآن فلا يعارض القطعى الثابت بالتواتر وبالأولى إذا كان الآحادى غير صحيح فلا يلتفت اليه وهذا القدر كاف فى رد كل رواية اعتبرت شبهة اجمالا ولكننا نذكر أهمها تفصيلا ونتبعه بالرد عليه.

أولا: من الشبه ما روى عن عثمان رضى الله عنه أنه لما عرض المصحف قال «أحسنتم وأجملتم ان فى القرآن لحنا ستقيمه العرب بألسنتها ونقل عن عكرمة أنه قال «لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفا من اللحن فقال لا تغيروها فان العرب ستغيرها أو قال ستعربها لو كان الكاتب من ثقيف والملى من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف» فهاتان الروايتان يدلان على أنه قد حصل فى كتابة القرآن لحن وخطأ فكيف يكون الرسم توقيفيا، وكيف

لا يجوز مخالفته ويجاب بما يأتى : أما عن الرواية الأولى فمن وجهين

أولهما أنه حديث مرسل وفى اسناده اضطراب وانقطاع يعود بالجهالة على بعض رواته والحق أن ذلك الحديث لم يصح عن عثمان أصلا ورده جماعة من العلماء كالامام أبي بكر الباقلانى والحافظ ابو عمر والداني وابى القاسم الشاطبى والجعبرى وغيرهم وايضافى الفاظه اضطراب لأن قوله احسنتم واجملتم مدح فكيف يمدحهم على الاساءة وهى وجود اللحن منهم

(ثانيهما) إن هذا الأثر على فرض صحته ينافى ما كان عليه عثمان رضى الله عنه من مواصلته لدرس القرآن وإتقانه لألفاظه وموافقته على ما رسم فى المصاحف المنفذة إلى الأمصار مع كونه من الصحابة المشهورين باقراء القرآن وتعليمه وقد أخرج أبو عبيد عن عبد الرحمن عن هانىء مولى عثمان قال كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة إلى أبى بن كعب فيها لم يتسن وفيها لا تبديل للخلق وفيها فأمهل الكافرين فدعا بالدواة فمحا أحد اللامين وكتب لخلق الله ومحا فامهل وكتب فمهل وكتب لم يتسنه فالحق فيها الهاء) فكيف يدعى عليه أنه رأى فسادا فامضاه مع أنه كان يوقف على ما يكتب ويرفع الخلاف الواقع من الناسخين اليه فيحكم بالحق ويلزمهم اثبات الصواب وتخليده .

فغير ممكن أن يتولى رضى الله عنه جمع المصحف مع سائر الصحابه ليرتفع الخلاف فى القرآن بين المسلمين ثم يترك فيه لحنا وخطأ ليتولى إصلاحه من يأتى بعده ممن لا يدرك مداه ولا يبلغ غايته

« ويجاب عن الرواية الثانية » بأنها مروية عن عكرمة عن عثمان مع أن عكرمة لم يسمع من عثمان شيئا ولم يره وقد وردت أيضا عن يحى بن يعمر عن عثمان وهو مثل عكرمة فى أنه لم يسمع من عثمان ولم يره فهى رواية مرسلة وفى سندها انقطاع فضلا عما فى ألفاظها من اضطراب لمنافاتها لما كان عليه عثمان كما تقدم

وأيضا قوله فان العرب ستغيرها أو ستعربها غير معقول لأن الغرض من كتابة المصحف رجوع العرب فى صحة قراءتهم إليه فلو توقفت صحته على العرب فى تغيير لحنه أو إعرابه لزم الدور وبيانه أنهم لا يقرؤن صحيحا الا وفق المكتوب والمكتوب لا يكون صحيحا الا إذا غيروه أو أعربوه فتكون صحة قراءة العرب موقوفة على القراءة فى المصحف الذى كتبه لهم عثمان وصحة المصحف وسلامته من اللحن موقوفة على صحة قراءتهم بتغيير لحنه أو اعرابه وهذا دور ظاهر البطلان

« ثانيها » من الشبه ما روى عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ « والمقيمين الصلاة » ويقول هو لحن من الكتاب

« والجواب » عن ذلك أنه لم يرد بقوله هو لحن انه خطأ وإنما أراد به أنه لغة والدليل على ذلك انه كان يقرأ والمقيمين بالنصب والياء فلو كان يريد باللحن الخطأ لما قرأ به .

« ثالثا من الشبه » روايات عن ابن عباس وهى:

١) أنه قال فى قوله تعالى « حتى تستأنسوا وتسلموا إنه قد أخطأ الكاتب إنما هى حتى تستأذنوا

٢) روى عنه أيضا أنه قرأ أفلم يتبين الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا فقيل له انها فى المصحف « أفلم ييأس الذين آمنوا » فقال أظن الكاتب كتبها وهو ناعس

٣) روى عن ابن عباس أيضا من طريق سعيد بن جبير أن ابن عباس كان يقول فى قوله تعالى « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه » إنما هى ووصى التزقت الواو بالصاد وورد هذا الأثر عنه بروايات متعددة مختلفة وفى بعضها زيادة « ولو كان قضاء من الرب لم يستطع أحد رد قضاء الرب ولكنها وصية أوصى بها العباد .

٤) روى عنه أيضا أنه كان يقرأ « ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان ضياء » أى بدون الواو

٥) ما روى عنه أيضا فى قوله تعالى « مثل نوره كمشكاة » قال هى من الكاتب هو أعظم من أن يكون ذرة مثل نور المشكاة إنما هى مثل نور المؤمن

« والجواب » عن جميع الروايات الواردة عن ابن عباس من وجوه : —

١) أنها كلها روايات غير صحيحة ولا معتبرة بل هى روايات مدسوسة فى كتب الأئمه نقلت من غير تثبت قال أبو حيان فى الرواية الأولى ان من روى عن ابن عباس أنه قال ذلك فهو طاعن

فى الاسلام ملحد فى الدين . وابن عباس برىء من ذلك القول وقال فى الرواية الثانية هو قول ملحد زنديق، وقال الزمخشرى ونحن مما لا يصدق هذا فى كتاب الله ؛ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتى الامام ، وكان متقلبا بين أيدى أولئك الأعلام المحتاطين ؛ فى دين الله المهيمنين عليه لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ؛ خصوصا عن القانون الذى اليه المرجع والقاعدة التى عليها البناء ؛ هذا والله فرية ما فيها مرية ، وقال ابن الأنبارى فى كل من الروايات الثلاث الأخيرة انه ضعيف ومعارض بما قرأ به ابن عباس نفسه على خلاف ما روى عنه

٢) على فرض صحة هذه الروايات فهى روايات آحادية لا تعارض القطعى ولا يثبت بها قرآن مع مخالفتها لرسم المصحف .

٣) إنها معارضة بما روى عن ابن عباس من أنه كان يقرأ على خلاف ما روى عنه كيف وهو رضى الله عنه قد أخذ القرآن عن زيد ابن ثابت وأبي بن كعب وهم كانا ممن جمع المصاحف وزيد بن ثابت كان فى جمع أبى بكر وكاتب الوحى فلا يعقل أن تكون قراءة ابن عباس على خلاف قراءة من أخذ عنهم القرآن . «رابعا» من الشبه ما ورد عن عائشة رضى الله عنها وهو ما روى عن هشام بن عروة عن أبيه قال سألت عائشة عن لحن القرآن عن قوله تعالى «إن هذان لساحران» وعن قوله تعالى «والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة» وعن قوله تعالى «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون» فقالت يابن أختى هذا

عمل الكتاب قد أخطئوا فى الكتاب» والجواب عن ذلك» أما بالنسبة لآية «إن هذان» بتشديد النون فان اسم الاشارة لم يكتب بالألف كما لم يكتب بالياء، وإذا لم يكن مكتوبا بالألف فكيف يعقل أن عائشة تخطىء الكاتب بما لم يكتبه بل الذى يعقل أنها تخطىء القارىء الذى يقرأ بالألف مع تشديد النون ولم ينقل ذلك عنها ولا عن غيرها ؛ وأما بالنسبة لقوله تعالى والمقيمين الصلاة من سورة النساء فقد قرأ الجمهور بالياء منصوبا وقرأ جماعة بالواو ومنهم أبو عمرو وقال أبو حيان فى البحر بعد أن ذكر عن عائشة رضى الله عنها وعن ابان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ كاتب المصحف ؛ ولا يصح عنهما ذلك لأنهما عربيان فصيحان وقطع النعوت أشهر فى لسان العرب وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيبويه وغيره وعلى القطع خرج سيبويه ذلك ؛ وقال الزمخشرى لا تلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنا فى خط المصحف وربما التفت اليه من لم ينظر فى الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان وخفى عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم فى التوراه ومثلهم فى الانجيل ، كانوا ابعد همة فى الغيرة على الاسلام وذب المطاعن عنه من أن يتركوا فى كتاب الله ثلمة يسدها من بعدهم وخرقا يرفوه من يلحقهم اهـ ؛ ومراده بالكتاب كتاب سيبويه ؛ وأما بالنسبة لقوله تعالى «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون» فى سورة المائدة فلم ينقل عن عائشة أيضا أنها خطأت من كان يقرأ بالواو فلا يعقل إذا أن تخطىء الكاتب لأنه كتب كما أمر.

٢) يجاب عن الآيات الثلاث بجواب يعمهما وهو أن ما ثبت في رسم المصحف ثبتت القراءة به متواترة فى كل وله وجه فى العربية فيكون قرآنا قطعا ولا يرد بروايات آحادمها بلغت من الصحة وسيأتى نذكر أنه متى صح الاسناد ووافق رسم المصحف ووافق وجه النحو كان قرآنا وإلا فلا . وبما تقدم جميعه تعلم أن هـذه الشبه وما ماثلها لا يعول عليه ولا يلتفت إليه ولنكتف بهذا القدر فى هذا البحث والله أعلم .

« شكل القرآن »

الشكل هو ما يدل على عوارض الحرف من حركة أو سكون سواء كان ذلك فى أول الكلمة أو وسطها أو آخرها .

وفى القاموس فى مادة شكل، والكتاب أعجمه كأشكله كأنه أزال عنه الاشكال اهـ وقوله والكتاب أى وشكل الكتاب ولا شك أن ما يميز الحرف من جهة كونه متحركا مع بيان نوع حركته من ضمة أو فتحة أو كسرة أو من جهة كونه ساكنا يزيل إبهامه وإشكاله .

ولم يكن الخط الذى وصل إلى العرب مضبوطا بالحركات والسكنات بل كان خاليا مما يدل على حركات الحروف وسكونهما وكانت ملكتهم وسليقتهم العربية تغنيهم عن ذلك إذ كانوا ينطقون بالكلمات طبق أوضاعها وما يرادبها من المعانى من غير حاجة إلى مايدل على بقية الكلمة وإعرابها لما هو متأصل فى نفوسهم من سليقة

الفصاحة والبلاغـة والاعراب ، ولذا حينما كتبت المصاحف فى عهـد عثمان جـردوها من الشكل ومن النقط اعتمادا على سليقتهم وعلى أن المـدار فى القـرآن على التلقى والرواية فلم يكن بهم حاجـة إلى شكله حتى اتسعت رقعـة الاسلام واختلط العرب بالعجم ودخل فى اللسان بعض هجنة وحدث اللحن فى اللسان وحدثت حوادث نبهت المسلمين إلى القيام بحفظ القـرآن الذى به نور الاسلام وعليه مدار الأحكام من أن يتطرق إلى الفاظه اللحن والخطأ ، وكان قد ظهـر فى المسلمين من تعلم أصول النحو وبرع فيه وفى القرآن امثال أبي الأسود الدؤلى ويحيى بن يعمر العدوى قاضى خراسان ونصر بن عاصم الليثى وكان أبو الأسود قد سمع قارئا يقرأ « إن الله برىء من المشركين ورسوله » بجر اللام فأفزع ذلك أبا الأسود وقال عز وجه الله أن يبرأ من رسوله ثم ذهب إلى زياد والى البصرة وقال له قد أجبتك إلى ما سألت (وكان زياد قد سأله أن يضع للناس علامات يعربون بهـا كتاب الله) ثم وضع أبو الأسود للقرآن علامات تدل على الحركات والسكنات وقد جعل للفتحة نقطة فوق الحرف وللكسرة نقطة أسفله وللضمة نقطة بين الحرف وللتنوين نقطتين وسلك الناس طريقته غير أنهم زادوا عليها علامة للحرف المشدد كالقوس ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو فى وسطها بحسب ما قبلها من ضمة أو فتحة أو ضمة واستمرت طريقة الشكل على هذا إلى أن كان عهد عبد الملك بن مروان واضطروا إلى تمييز ذات الحروف من بعضها بعد تمييز عوارضها ووضع النقط الذى هو الأعجام

للباء والتاء والثاء وهكذا كما سيأتي فالتبس الشكل بالنقط فجعل لكل منهما مداد مخالف للون الآخر ثم جعل للشكل علامات أخرى وهي العلامات الموجودة اليوم للفتحة والكسرة والضمة والتنوين والتشديد وغيرها وبذلك صار القرآن مشكولا منقوطا.

﴿ إعجام القرآن ﴾

الأعجام هو الدال على ذات الحروف وتمييز الحروف المتماثلة فى الرسم من بعضها وفى القاموس فى مادة عجم والكتاب نقطة كعجمة وأعجمة وقول الجوهرى لا تقل عجمت الكتاب وهم.

فالاعجام إزاله العجمة كالشكل ازالة الاشكال وقد تقدم عن القاموس أن الشكل هو الاعجام فهو يدل على أن كل منهما يطلق على الآخر غير أن الاصطلاح أخيرا خص الشكل بالحركات والاعجام بالنقط للتمييز بين ما يدل على ذات الحرف وبين ما يدل على عوارضه وقد كانت المصاحف مجردة من النقط كما أنها مجردة من الشكل كما تقدم اعتمادا على التلقى والرواية وقد اختلف المؤرخون فبعضهم يرى أن الاعجام كان معروفا قبل الاسلام لتمييز الحروف المتشابهة من بعضها غير أنه قد ترك

وبعضهم يرى أن الاعجام لم يعرف الا من طريق أبى الأسود الدؤلى ثم اشتهر ووضع فى القرآن فى عهد عبدالملك بن مروان والظاهر الأول لأنه يبعد جدا أن لا يكون للحروف علامات تميز المتشابهات منها عن بعض وعلى كل فاحداث النقط فى القرآن بل تعميمه فيه

الكتابة عامة كن فى عصر عبد الملك بن مروان

وقد اشتدت الحاجة الى ذلك عندما صارت الحروف تلتبس على القراء فى مثل (ننشزها وننشرها) بالراء او بالزاى (ولتكون لمن خلفك) بالفاء او القاف واشتبهت الحروف ببعضها فاهتم عبد الملك لذلك وامر الحجاج بالنظر فيه فاحدث الاعجام فى عهده »

وكان ذلك على يدى نصر بن عاصم الليثى ، ويحيى بن يعمر العدوانى تلميذى ابى الأسود الدؤلى وكانا من الصلاح والورع وبلوغ الغاية فى العربية والقراءة بمكان عظيم فوضعا النقط من واحدة إلى ثلاث للحروف المتشابهة وكان فى هذا توفيق للامة عظيم اذ كان سببا فى حفظ القرآن ومنه تعلم ان الشكل والاعجام كان لحدوثهما صيانه للقرآن وأما التحزيب والتشيير وفواتح السور وغير ذلك فكل هذا مما زيد لغرض التيسير على القارىء ولكن ليس له من الأهمية ما للشكل والنقط

وقد اختلف العلماء فى جواز ذلك ؛ وإليك عبارة القرطبى مع اختصار فى بعضها «فصل» وأما شكل المصحف ونقطه فروى أن عبد بن مروان أمر به وعمله فتجرد لذلك الحجاج بواسط وجد فيه وزاد تحزيبه وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك ؛ وألف اثر ذلك بواسط كتابا فى القراءات جمع فيه ما روى من اختلاف الناس فيما وافق الخط ، ومشى الناس على ذلك زمنا طويلا إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه فى القراءات ، وأسند الزبيدى فى كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى وذكر أيضا أن

ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر

﴿ فصل ﴾

وأما وضع الأعشار فقال ابن عطية مر بي في بعض التواريخ أن المأمون العباسي أمر بذلك وقيل إن الحجاج أمر بذلك اه

ثم نقل عن مجاهد أنه كره التعشير وعن مالك كراهة العشور التي تكون في المصحف بالحمرة وغيرها وكراهته كتابة خواتيم السور في أمهات المصاحف دون مصاحف الغلمان وقال قتادة بدءوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا وعن يحيى بن كثير أنه قال كان القرآن مجردا في المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء والثاء وقالوا لا بأس هو نور له ثم أحدثوا النقط عند منتهى الآى ثم أحدثوا الفواتيح والخواتيم وقال الداني هذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشير والتخميس وفواتح السور ورؤوس الآى من عمل الصحابة رضي الله عنهم قادهم إلى عمله الاجتهاد ، وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم ، انما كره أن أن يعمل بالألوان كالحمرة والصفرة وغيرها على أن المسلمين في سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله في الأمهات وغيرها والحرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله اه

وأنت خبير بأن نسبة هذا إلى عمل الصحابة مخالف لما هو المشهور من أن ذلك كان من عمل أبي الأسود الدؤلي في عهد زياد بالبصرة وعمل تلميذيه في عهد عبد الملك بن مروان والله أعلم

(١٠) (القراءات والقراء ورد الشبه الواردة فى هذا المقام)

«القراءات» هى اختلاف ألفاظ القرآن فى الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد ومد وإمالة وغيرها لحقيقتها تغاير حقيقة القرآن قال الزركشى فى البرهان القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان فالقرآن هو الوحى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والاعجاز. والقراءات اختلاف الفاظ الوحى المذكور فى الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما إهـ

الضابط فى قبول القراءات

كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا ، وصح سندها ، فهى القراءة الصحيحة ، التى لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها. بل هى من القراءات الذى نزل بها القرآن ، ووجب على الناس قبولها ، سواء نقلت عن الأئمة السبعة الآتي بيانهم ، أم عن العشرة كذلك ، أم عن غيرهم ، ولا تقبل قراءة تعزى إلى أى إمام سواء كان من السبعة أم من غيرهم ، ولا يطلق عليها لفظ الصحة وأنها أنزلت هكذا إلا إذا دخلت فى هذا الضابط وانطبقت جميع الاوصاف عليها فان الاعتماد إنما هو على استجماع تلك الأوصاف لا على من تنسب اليه

«وقولنا» فى الضابط ولو بوجه المراد به أحد وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحا مجمعا عليه أم مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالاسناد الصحيح ؛ لأنه

الأصل الأعظم والركن الأقوم فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو ولم يعتبر إنكارهم ، كاسكان « بارئكم ويأمركم) وخفض والأرحام) ونصب (ليجزى قوما) والفصل بين المضافين فى (قتل أولادهم شركائهم) وغير ذلك ، لأن أئمة القراء لا يعتمدون فى شىء من القراءات على الافشاء فى اللغة ولا على القياس فى العربية بل على الاثبت فى الأثر والأصح فى النقل مع بقية الضابط ومتى ثبتت الرواية لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير اليها (وقولنا) ووافقت أحد المصاحف العثمانية المراد به ولو كان ثابتا فى بعضها دون بعض كقراءة ابن عامر « قالوا اتخذ الله ولدا » فى البقره بغير واو « وبالزبور وبالكتاب باثباتها فيهما فان ذلك ثابت فى المصحف الشامى ، وكقراءة ابن كثير « تجرى من تحتها الانهار » فى آخر براءة بزيادة من ، فانه ثابت فى المصحف المكى وسواء كانت موافقة أحد المصاحف تحقيقا كما ذكر أو كانت الموافقه تقديرا وهذا معنى قولنا ولو احتمالا وذلك مثل ملك يوم الدين » فانه كتب فى جميع المصاحف بلا الف مع أنه قرىء بها وبدونها فقراءة الحذف توافق رسم المصحف تحقيقا وقراءة الاثبات توافقه تقديرا لحذفها فى الخط اختصارا من « ملك الملك »

وقد يوافق رسم المصحف اختلاف القراءات تحقيقا مثل تعلمون بالياء والتاء و(يغفر لكم » بالياء والنون وغير ذلك مما يدل تجرده من

النقط والشكل على فضل عظيم للصحابة رضى الله عنهم وفهم ثاقب فى علم الهجاء وغيره !

(وقولنا وصح سندها) المراد به أن يروى تلك القراءة العدل الضابط عن مثله ؛ وهكذا حتى ينتهى ، ومع ذلك تكون مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين ؛ غير معدودة عندهم من الغلط ، أو مما شذ بها بعضهم ، وظاهر هذا الأكتفاء بصحة السند على الوجه المذكور وعدم اشتراط التواتر وذلك لأن التواتر اذا ثبت لا يحتاج معه الى الركنين الآخرين وهما موافقة الرسم وموافقة النحو لأن ما ثبت من القراءات متواترا عن النبى صلى الله عليه وسلم وجب قبوله وقطع بكونه قرآنا سواء وافق الرسم أم لا أما اذا لم يكن تواتر فلا بد من الركنين مع صحة الاسناد واذا شرطنا التواتر فى كل حرف من حروف الخلاف انتفى كثير من أحرف الخلاف الثابت من السبعة اه . ملخصا من ابن الجزرى والاتقان مع ايضاح !!

وسيأتى تحقيق القول فى تواتر القراءات السبع وغيرها . ويجمع هذا الضابط قول ابن الجزرى فى الطيبة .

فكل ما وافق وجه النحو   وكان للرسم احتمالا يحوى

وصح اسنادا هو القرآن   فهذه الثلاثة الأركان

وحيثما يختل ركن أثبت   شذوذه لو أنه فى السبعة

﴿ أنواع القراءات ﴾

جعل ابن السبكى القراءات على ضربين « المتواتر » وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب « والشاذ » وهو غير المتواتر وجعل القراءات السبع والعشر متواترة . والشاذ ما وراء ذلك، والذى حرره ابن الجزرى ونقله عنه السيوطى وغيره أن أنواع القراءات ستة :

(النوع الأول) المتواتر وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم ومثاله ما اتفقت الطرق فى نقله عن السبعة أو عن غيرهم وهذا هو الغالب فى القراءات :

« النوع الثانى المشهور » وهو ما صح سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله وهكذا ووافق العربية ولو بوجه ووافق أحد المصاحف العثمانية سواء كان عن الأئمة السبعة أو غيرهم من الأئمة المقبولين واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ إلا أنه لم يبلغ درجة المتواتر، ومثاله ما اختلفت الطرق فى نقله عن السبعة فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض وقد ذكر كثير من هذا النوع الدانى فى التيسير والشاطبى فى الشاطبية وغيرهما وهذان النوعان هما اللذان يقرأ بهما مع وجوب اعتقادهما ولا يجوز انكار شىء منهما

« النوع الثالث الآحاد » وهو ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار المذكور وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده ، ومثال ذلك « رفارف خضر وعباقرى حسان » وكذا « من قرات أعين »

«النوع الرابع الشاذ» وهو مالم يصح سنده ومثاله قراءة ابن السميقع فاليوم ننحيك ببدنك بالحاء المهملة لتكون لمن خلفك بفتح اللام وقراءة «ملك يوم الدين» بصيغة الماضي ونصب يوم، وهذا النوع والذي بعده لا يجوز القراءة به ولا يجوز اعتقاده.

«النوع الخامس الموضوع» وهو ما نسب إلى قائله بغير أصل ومثال ذلك القراءات التي جمعها محمد بن جعفر الخزاعي ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي ونسبها إلى أبي حنيفة ولا أصل له في ذلك مثل «إنما يخشى الله من عباده العلماء» برفع لفظ الجلالة ونصب همزة العلماء مع أن هذه القراءة لا أصل لها

«النوع الثاني ما يشبه المدرج» وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير مثاله ما روي عن ابن عباس قراءة ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج وما روي عن سعد ابن أبي وقاص «وله أخ أو أخت من أم» وربما كانوا يدخلون التفسير في القرآن أيضاحا اعتمادا على أنهم محققون لما تلقوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه قرآن فكان الالتباس عندهم مأمونا فلما كتبت المصاحف في عهد عثمان جردت من ذلك لأنها صارت مرجعا عاما

﴿أنواع الاختلاف في القراءة﴾

تختلف القراءات على ثلاثة أضرب

الأول اختلاف في اللفظ مع الاتفاق في المعنى مثل «خطوات»

وخطوات ، بضم الطاء واسكانها ومثل « كفوا وكفؤا » بالواو والهمزة .

الثاني : اختلاف فى اللفظ والمعنى مثل « يخدعون ويخادعون » و« لامستم ولمستم » و« ويكذبون ويكذبون » بتشديد الذال وتخفيفها و« يطهرن ويطهرن » باسكان الطاء وتشديدها .

(الثالث) : اختلاف فى صفة النطق باللفظ مع الاتفاق فى اللفظ والمعنى كالمد والامالة ونقل الحركات والاظهار والادغام وترقيق اللامات والراءات وتغليظها وغير ذلك

وكل من النوع الأول والثالث مما لا يترتب على الاختلاف فيه تغاير فى المعنى أمر القراءة به ظاهر ، وأما النوع الثاني وهو ما كانت القراءات فيه متغايرة المعنى فانه متى ثبت كل منها بالطرق التى تقبل فى ثبوت القراءات على الوجه السابق وجب قبول كل منها مع اعتقاد ان الكل حق وتكون كل قراءة مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية الأخرى ، يجب الايمان بها كلها واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملا ، ولا يجوز ترك موجب احداها لأجل الأخرى ظنا أن ذلك تعارض ؛ بل كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه من كفر بحرف منه فقد كفر به كله ؛ هذه أنواع الاختلاف فى القراءات

أما نقل الاختلاف فى القراءات فهو على ضربين .

الأول : اختلاف اتفقت الطرق على نقله عن القراء بأن تكون قراءة كل من القراء المخالفه لقراءة الآخر قد اتفقت الطرق على

اسنادها لقارئها وهذا النوع من القراءات السبع الآتى ذكرها متواتر باتفاق .

« الثانى » اختلاف اختلفت الطرق فى نقـــله بأن تكون قراءة القارىء المخالفة لقراءة غيره يثبتها بعض الطرق لقارئها وينفيها بعض الطرق عنه ، وهذا النوع من القراءات السبع هو الذى قال فيه أبو شامة انه غير متواتر كما سيأتى النقل عنه .

السبب فى اختلاف القراءات

والسبب فى اختلاف القراءات السبع وغيرها أن عثمان رضى الله عنه لما كتب المصاحف ووجه بها إلى الأقاليم كان بكل اقليم من الصحابة من يحمل عنــه أهله القرآن وكانت المصاحف خاليــة من النقط والشكل فثبت أهل كل ناحية على ما تلقوه سماعا من الصحابة الذين عندهم بشرط موافقة المصحف والعربية وتركوا ما يخالف خط المصحف امتثالا لما أمر به عثمان وأجمع عليه الصحابة لما رأوا فى ذلك الاحتياط للقرآن والصحابة إنما كانوا يقرءونهم بما تلقوه عن رسول الله ﷺ ومن أجل ذلك نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار مع كونهم متمسكين بحرف واحد وهو حرف قريش ، وقد ظن بعض الناس أن القراءات قد أخذت من المصحف ، وليس كذلك لخلوه فى أول الأمر من النقط والشكل ، نعم المصحف كتب بصــورة تحتمل القراءات المختلفة فى الأغلب ولكنه لم يكن إماما ودليلا فى كيفيـــة النطق والأداء وإنما الاعتماد فى ذلك على الرواية والتلقى والسماع .

وإنما كان المصحف اماما ودليلا فيما يعينه من ترتيب يمنع التقديم والتأخير ، ومن حصر يمنع الزيادة والنقصان ، وابدال لفظ بلفظ آخر وإن كان بمعناه ، وبهذا قد تلخص أن سبب الاختلاف أن الصحابة فى الأقاليم المختلفة الذين عنوا باقراء القرآن كله لم يقرئه كل منهم أهل إقليمه بجميع القراءات المنزلة بل أقرأهم ببعضها وثبتوا على ذلك البعض وهكذا فى الجهات المختلفة كما تقدم ، ويدل على أن الاعتماد إنما هو على الحفظ والتلقى أمران : «أولهما» ما ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم أنه ﷺ قال «إن ربى قال لى قم فى قريش فأنذرهم فقلت أى رب إذا تبلغوا «أى يشدخوا» رأسى فقال انى مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظانا ، فابعث جندا أبعث مثليهم وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأنفق أنفق عليك .»

فقد أخبر أن كتابه لا يحتاج إلى صحيفة تغسل بالماء ، بل يقرؤه فى كل حال ، وقد ورد أيضا فى وصف امته «أناجيلهم صدورهم» فقد وصف الأمة بأنهم يحفظون القرآن عن ظهر قلب ولا يحتاجون إلى صحيفة بخلاف أهل الكتاب ، فانهم كانوا لا يحفظون كتابهم ولا يقرؤنه كله إلا فى الصحف . «ثانيهما» ما روى أن عثمان رضى الله عنه لما كتب المصاحف انفذها الى الأقطار وأرسل الحفاظ معها لتعليم المسلمين فقد أمر زيد بن ثابت أن يقرىء بالمصحف المدني «وبعث» عبد الله بن السائب مع المكى ، «وبعث» المغيرة بن شهاب مع الشامى «وبعث» أبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفى «وبعث» عامر بن عبد قيس مع

البصرى ، وكان فى تلك الأمصار فى ذلك الوقت الجم الغفير من حفاظ القرآن التابعين (فكان بالمدينة) ابن المسيب وعروة . وسالم وعمر بن عبد العزيز . وسليمان وعطاء ابنا يسار . ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القارىء . وعبد الرحمن بن هرمز ؛ وابن شهاب الزهرى . ومسلم ابن جندب وزيد بن اسلم وغيرهم (وكان بمكة) عبيد الله بن عمير . وطاووس . وعطاء . ومجاهد . وعكرمة . وابن أبي مليكة وغيرهم . (وكان بالكوفة) علقمة . والأسود . ومسروق . وعبيدة . وعمر بن شرحبيل . والحارث بن قيس . والربيع بن خيثم . وعمرو بن ميمون وغيرهم (وكان بالبصرة) عامر بن قيس . وأبو العالية . وأبو رجاء . ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر . وجابر بن زيد . والحسن . وابن سيرين . وقتادة . وغيرهم .

« وكان بالشام » المغيرة بن شهاب المخزومى صاحب عثمان بن عفان . فى القراءة وخليد بن سعد صاحب أبي الدرداء وغيرهما

وقد قرأ أهل كل مصر بما نقلوه عن الصحابه الذين تلقوا عن رسول الله ﷺ ووافق مصحفهم ؛ فقاموا فى ذلك مقام الصحابه ثم تجرد قوم للقراءة والأخذ واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية حتى صاروا فى ذلك أئمة للاقتداء يرحل اليهم ويؤخذ عنهم أجمع أهل بلدهم على تلقى قراءاتهم ولم يختلف عليهم إثنان فى صحة روايتهم ولتصديهم للقراءة نسبت اليهم وكان المعول فيها عليهم ، وقد أجمعت الأمة

المعصومة من الخطأ على قراءاتهم الموافقة للمصاحف وترك ماخالفها..

فوائد اختلاف القراءات

لاختلاف القراءات وتنوعها مع السلامة من التضاد والتناقض فوائد كثيرة « منها » الجمع بين حكمين مختلفين كقراءة (يطهرون ويطهرن » بالتخفيف والتشديد فيجمع بينهما بأن الحائض لا يقربها زوجها حتى تطهر بانقطاع حيضها وتطهر بالاغتسال (ومنها) الدلالة على حكمين شرعيين مختلفين كقراءة «وأرجلكم» بالخفض والنصب فان الخفض يقتضى فرض المسح والنصب يقتضى فرض الغسل والظاهر بينهما التنافى فجمع رسول الله ﷺ بينهما وبين أن كلا منهما فى حالة فجعل المسح للابس الخف والغسل لغير لابسه فيكون كل من القراءتين دل على حكم فى حالة غيرمادلت عليه الأخرى

ومنها بيان المراد من حكم القراءة الأخرى كقراءة « فاسعوا » فانها تفيد بظاهرها المشى السريع وقراءة « فامضوا » بينت أن المراد مجرد الذهاب ، وكقراءة لمستم مع لامستم فانها بينت أن المراد المس المباشر من قوله تعالى

« ومنها » الاعجاز مع الايجاز فان كل قراءة مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية لأن تنوع اللفظ واختلاف دلالاته بذلك يقوم مقام آيات ولو جعلت دلالة كل لفظ من دلالاته المختلفة آية على حدتها كان فى ذلك تطويل

«ومنها» سهولة حفظه وتيسير نقله على هذه الأمة فان حفظ كلمة ذات أوجه أسهل وأقرب إلى الفهم من حفظ جمل تؤدى معانى تلك القراءات المختلفة لا سيما إذا كان الخط واحدا .

«ومنها» الاحتجاج على القول الحق كقراءة «وملكا كبيرا» بكسر اللام وردت عن ابن كثير وغيره ويحتج بها على رؤية الله تعالى فى الآخرة وكذا الاحتجاج بقول بعض أهل العربية كقراءة «والارحام» بالخفض وليجزى قوما بالبناء للمفعول مع النصب .

«ومنها» إعظام أجور هذه الأمة لبذلهم الجهد واستفراغهم الوسع فى تتبع معانى القراءات المختلفة واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ واستخراج أسراره وخفى إشاراته وإمعانهم النظر والكشف عن التوجيه والتعليل والترجيح والتفصيل بقدر ما يبلغ غاية علمهم ويصل اليه نهاية فهمهم «فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى» والأجر على قدر المشقة وهذا لا ينافى تيسير الحفظ السابق لأن هذا فى استخراج المعانى والاحكام وذلك فى الحفظ .

«ومنها» إتصال سند هذه الأمة فى القرآن فان قراءة اللفظ الواحد بقراءات مختلفة مع إتحاد خطه وخلوه من الشكل والنقط متوقف على السماع والتلقى والرواية بل بعد نقط المصحف وشكله لأن الألفاظ التى اختلفت قراءتها إنما نقطت وشكلت على وجه واحد فلم تزل باقى الأوجه متوقفة على السند والرواية إلى يومنا هذا ؛ وفى ذلك منقبة عظيمة

ونعمة جسيمة لهذه الأمــة المحمدية بشعب أسنادها كتابها وربها واتصال هذا السند الالهى بسنده فكان ذلك تخصيصا بالفضل لهذه الأمــة وإعظاما لقدر هذه الملة ولنكتف فى الذكر بهذا القدر من الفوائد والله أعلم وبعد أن بينا ضابط القراءات واختلافها وأنواعها وأسباب الاختــلاف وفوائــده وذلك عام فى القــراءت السبع والعشره وقراءها وما يتعلق بها فنقول

(القراءات السبع)

القراءت السبع هى القراءات المنسوبة للأئمة السبعة المعروفين عند القراء وهم نافع، وعبدالله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعبد الله بن عامر، وعاصم، وحمزه، وعلى الكسائى، وسيأتى الكلام عليهم ولم تكن القراءات السبع متميزة فى التأليف من غيرها فان الذين صنفوا فى القراءات من الأئمة المتقدمين كأبى عبيد القاسم بن سلام وأبى حاتم السجستانى وأبى جعفر الطبرى واسماعيل القاضى قد ذكروا أضعاف هؤلاء وكان الناس على رأس المائتين «بالبصرة» على قراءة أبى عمرو ويعقوب «وبالكوفة» على قراءة حمزه وعاصم «وبالشام» على قراءة ابن عامر «وبمكة» على قراءة ابن كثير «وبالمدينة» على قراءة نافع واستمروا على ذلك، فلما كان على رأس الثلثمائة قام الامام أبو بكر احمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، ببغداد وجمع قراءات سبعة من مشهورى أئمة الحرمين والعراقين والشام وهم الذين تقدمت اسماؤهم غير أنه أثبت اسم الكسائى وحذف يعقوب، والسبب فى الاقتصار

على السبعة مع أن فى أئمة القراء من هو أجل منهم قدراً ومثلهم أكثر من عددهم أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرين جداً فنظر إلى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر فى ملازمة القراءة والاتفاق على الأخذ عنه ومع ذلك لم يترك الناس نقل ما كان عليه غير هؤلاء من الأئمة القراءات ولا القراءة به كقراءة يعقوب وأبي جعفر وخلف وهم الثلاثة المكملون للعشرة كما سيأتى

وقد اقتصر ابن جبر المكى على خمسة اختار من كل مصر من الأمصار التى بعث اليها عثمان بالمصاحف إماما وبهذا تعلم أن العدد فى سبعة كان اتفاقيا ، لا بن مجاهد

وقد توهم بعض الناس أن قراءات السبعة هى الأحرف السبعة وليس الأمر كذلك ، والذى أوقع هؤلاء فى هذه الشبهة أنهم سمعوا أن القرآن أنزل على سبعة أحرف وسمعوا قراءات السبعة ؛ فظنوا أن هذه السبعة هى تلك المشار اليها .

ولهذا لام كثير من العلماء المتقدمين ابن مجاهد على اختياره عدد السبعة لما فيه من الابهام وقالوا هلا اقتصر على مادون هذا العدد أو زاد عليه أو بين مراده ليخلص من لا يعلم من هذه الشبهة ؛ قال أبو شامة ، ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هى التى أريدت فى الحديث وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل ، اه .

وقال أبو العباس بن عمار ؛ لقد فعل مسبع هذه السبعة مالا ينبغى

له ، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظاره أن هذه القراءات هى المذكورة فى الخبر وليته إذا اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة ووقع له أيضا فى اقتصاره لكل إمام على راويين أنه صار من سمع قراءة راو ثالث غيرهما أبطلها وقد تكون هى أشهر وأصح وأظهر ، وربما بالغ من لا يفهم فخطأ أو كفر اه .

ولغير من ذكرنا عبارات فى هذا المعنى وأنت خبير بأن ابن مجاهد لم يكن رائده فى ذلك إلا التحرى والضبط ومع ذلك فالقراء لم يتركوا مما تركه شيئاً بل كل قراءة أخذت حظها من العناية بالنقل والتمحيص والتدقيق فما استجمع منها ضابط القراءات قبل والا فلا ، ولنتكلم على القراء السبعة

﴿ القراء السبعة ﴾

ولنذكر طرقهم فى الرواية ونقتصر فى الرواة عن كل منهم على اثنين ممن اشتهروا فى الرواية عنه وهما اللذان اقتصر عليهما ابن مجاهد وان كان الرواة عن كل منهم أكثر من اثنين وهاهم القراء السبعة وراويا كل منهم .

(الأول) أبو عمرو زبان بن العلاء البصرى روى عن مجاهد بن جبر وسعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ على جماعة منهم أبو جعفر يزيد بن القعقاع والحسن البصرى وقرأ الحسن على حطان وأبى العالية وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب وكان أبو عمرو من أعلم الناس بالقراءة مع الصدق

والأمانة والثقة فى الدين وتوفى سنة أربع وخمسين ومائة وكان مولده سنة ثمان وستين « ورواه الدورى » والسوسى عن اليزيدى عنه .

(الدورى) هو أبو عمرو حفص بن عمر المقرى الضرير روى عن اليزيدى عن أبى عمر طريف أبى الزعراء عبد الرحمن بن عبدوس وكان الدورى شيخ القراء فى وقته وهو منسوب إلى الدور موضع بالجانب الشرقى من بغداد وكان ثقة ضابطا وهو أول من جمع القراءات وتوفى فى شوال سنة ست وأربعين ومائتين .

والسوسى : هو أبو شعيب صالح بن زياد روى عن اليزيدى عن أبى عمر طريف أبى الحارث محمد بن احمد الرقى وكان ثقة ضابطا من أجل أصحاب اليزيدى توفى سنة احدى وستين ومائتين وعاش نحو التسعين سنة

الثاني ابن كثير : هو أبو محمد عبد الله بن كثير المكى وقيل « أبو معبد » روى عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ على أبى السايب عبد الله بن السايب بن أبي السايب المخزومى وقرأ عبد الله بن السايب على أبى بن كعب وعمر بن الخطاب وكلاهما قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان ابن كثير إمام الناس فى القراءة بمكة من غير منازع وكان ذا سكينة ووقار لقى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن الزبير وأبا أيوب الأنصارى وأنس بن مالك .. ولد ابن كثير سنة

خمس وأربعين وتوفى سنة عشرين ومائة (وراوياه عن أصحابه هما البزى وقنبل).

«أما البزى» فهو أبو الحسن أحمد بن عبد الله ن القاسم بن نافع ابن أبي بزة البزى وبينه وبين ابن كثير رجال ، لأنه يروى عن عكرمة ابن سليمان بن كثير عن شبل بن عباد واسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين عن ابن كثير وكان إمام المسجد الحرام ومقرئه ومؤذنه وكان إماما ضابطا ثقه انتهت إليه مشيخة الاقراء بمكة ، ولد البزى سنة سبعين ومائة وتوفى سنة خمسين ومائتين .

«وأما قنبل» فهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد المخزومى المكى كنيته أبو عمرو وقنبل لقب له ؛ قرأ على أبى الحسن احمد القواس ، وقرأ القواس على أبى الأخريط وقرأ أبو الاخريط على القسط وأخبر أنه قرأ على شبل وقرأ شبل على ابن كثير ، وكان قنبل اماما فى القراءة متقنا ضابطا رحل اليه الناس من جميع الأقطار . ولد سنة خمس وتسعين ومائة وتوفى سنة احدى وتسعين ومائتين .

«الثالث» نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدنى قرأ على أبى جعفر القارىء وعلى سبعين من التابعين على عبد الله بن عباس وأبى هريرة على ابى بن كعب على النبى ﷺ

وكان امام الناس فى القراءة بالمدينة انتهت اليه رياسة الاقراء بها ولد نافع فى نهاية سنة سبعين وتوفى سنة تسع وستين ومائة

«وراوياه قالون وورش»

أما قالون: فهو أبو موسى عيسى بن مينا النحوى قرأ على نافع واختص به كثيرا وقال قرأت على نافع غير مرة وكتبتها عنه ولد سنة عشرين ومائة وتوفى سنة عشرين ومائتين وقالون فى الأصل معناه الجيد.

وأما ورش: فهو عثمان بن سعيد المصرى وكنيته أبو سعيد وورش لقب له رحل إلى المدينة ليقرأ على نافع فقرأ عليه ختمات فى سنة خمس وخمسين ومائة ورجع إلى مصر فانتهت اليه رياسة الاقراء بها ولد سنة عشر ومائة وتوفى سنة سبع وتسعين ومائة وكان حسن الصوت جيد القراءة لا يمله سامع

«الرابع ابن عامر» وهو عبد الله بن عامر اليحصبى ويحصب فخذ من حمير وكنيته أبو نعيم وقيل أبو عمران، كان إمام دمشق وقاضيها وهو تابعى لقى واثلة بن الأسقع والنعمان بن بشير وقرأ على المغيرة بن أبي شهاب المخزومى على عثمان بن عفان رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقل يحيى بن الحارث الذمارى إنه قرأ على عثمان ولد سنة احدى وعشرين وتوفى سنة ثمان عشرة ومائة

وراوياه عن أصحابه: هشام وابن ذكوان.

«أما هشام» فهو أبو عمار ابن نصير السلمى القاضى الدمشقى وكنيته أبو الوليد أخذ القراءة عن عراك بن خالد المرى عن يحى بن الحارث الزمارى عن ابن عامر وكان عالم دمشق ومفتيها ومحدثها مع

الثقه والضبط ولد سنــــة ثلاث وخمسين ومائة وتوفى سنـــــة خمس وأربعين ومائتين .

« وأما ابن ذكوان » فهـو أبو محمد عبد الله أحمـد بن بشير ابن ذكوان القرشي الدمشق وقيل كنيته أبو عمر أخـذ قراءة بن عامر عن أيوب بن تميم التميمى عن يحى بن الحارث الذمارى عن بن عامر ، قال أبو زرعة الحافظ الدمشق لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان فى زمن أبن ذكوان عندى أقرأ منه توفى فى شوال سنة ثنتين ومائتين .

« الخامس عاصم » وهو أبو بكر عاصم بن أبى النجود بن بهدلة مولى بنى خزيمة بن مالك بن النضر والنجود بفتح النون وضم الجيم من من نجـدت الثياب سويت بعضها فوق بعض قرأ عاصم على زر بن حبيش على عبد الله بن مسعود على رسـول الله ﷺ وعلى أبي عبـد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمى معلم الحسن والحسين على على رضى الله عنه على رسول الله ﷺ . كان جامعا بين الفصاحة والأتقان والتحرير والتجويد ومن أحسن الناس صوتا بالقرآن توفى آخر سنـة سبع وعشرين ومائة .

« وراوياه أبو بكر شعبة وحفص »

« أما شعبة » فهو أبو بكر عياش بن سالم الأسدى واسمه شعبـة وقيل محمد وقيل مطرق كان إماما عالما كبيرا ولد سنة خمس وتسعين وتوفى سنة ثلاث وتسعين ومائة ،

«وأما حفص» فهو أبو عمر بن حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز تعلم القراءة من عاصم كما يتعلم الصبي من المعلم وكان ربيب عاصم ابن زوجته ولد سنة تسعين وتوفى سنة ثمانين ومائة .

«السادس حمزة» وهو حبيب عمارة الزيات التيمي مولى عكرمة ابن ربعى التيمى وكنيته أبو عمارة ؛ قرأ على أبى محمد سليمان بن مهران الأعمش على يحيى بن وثاب على زرين بن حبيش على على بن أبى طالب وعثمان وابن مسعود على النبي صلى الله عليه وسلم كان ورعا عالما بكتاب الله مجوداله عارفا بالفرائض والعربية حافظا للحديث ولد حمزة سنة ثمانين وتوفى سنة ست وخمسين ومائة .

«وراوياه» خلف وخلاد

«أما خلف» فهو أبو محمد بن خلف بن هشام بن طالب البزاز روى عن سليم بن عيسى الحنفى عن حمزة ؛ ولد خلف سنة خمسين ومائة وتوفى فى جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين ومائتين وكان ثقة زاهدا عابدا.

« وأما خلاد» فهو أبو عيسى خلاد بن خالد الصيرفى روى أيضا عن سليم بن عيسى الحنفى عن حمزة كان أضبط أصحاب سليم وأجلهم عارفا محققا وتوفى سنة عشرين ومائتين.

«السابع الكسائى» وهو أبو الحسن على بن حمزة الكسائى النحوى من أولاد الفرس من سواد العراق ؛ قرأ على حمزة بن حبيب على يحيى ابن وثاب على زرين بن حبيش على عثمان وعلى وابن مسعود على النبى ﷺ قال أبو بكر بن الانبارى اجتمعت فى الكسائي أمور كان أعلم

الناس بالنحو وأوحدهم بالغريب وكان أوحد النـاس بالقرآن فـكانوا يكثرون عليه حتى لا يضبط الأخذ عليهم فيجتمع فى مجاس ويجلس على الكرسى ويتلو القرآن من أوله لآخره يسمعون ويضبطون عنـه حتى المقاطع والمبـــادىء توفى سنة تسع وثمانين ومائتين «وراوياه : أبو الحارث والدورى»

أما أبو الحارث : فهو أبو الحارث الليث بن خالد المروزى المقرىء قرأ على الكسائى وكان من أجلة أصحابه وكان ثقة ضابطا توفى سنة أربعين ومائتين .

«وأما الدورى» فقد تقدم الكلام عليه مع أبي عمرو بن العلاء .

﴿ الـكلام على القراء الثلاثة الذين بهم تكمل العشرة ﴾

وهم : أبو جعفر . ويعقوب . وخلف :

«أما أبو جعفر» فهو أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارى نسـبة لموضع بالمدينة يسمى قار «ورواته» اثنان : أبو موسى عيسى بن وردان الحذاء طريق قالون عيسى بن مينا النحوى «وأبو مسلم» سليمان بن مسلم الجماز الزهرى طريق أبي عبد الرحمن قتيبة بن مهران .

وأما يعقوب : فهو أبو محمد يعقوب بن اسحق الحضرمى ، قرأ على أبى المنذر سلام بن سليمان الطويل على عاصم وأبى عمر وتوفى سنة خمس ومائتين . ورواته ثلاثة «روح بن عبد الملك» طريق احمد بن يحيى المعدل «وأبو بكر محمد بن المتوكل اللؤلؤى الملقب برويس» طريق أبي محمد بن هرون وطريق أبى الحسن احمد بن محمد يعقوب بن مقسم

الفقيه وأبو احمد زيد بن احمد بن اسحاق؛ طريق العدل أيضا وطريق محمد ابن هرون

«وأما خلف» فهو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزار، قرأ خلف على سليم على حمزة اه. بحث القراء ملخصا من مقدمة تفسير النيسابوري ومن تاريخ القرآن لأبى بن عبد الله الزنجاني نقلا عن كتاب المكرر فيما تواتر من القراءات السبع وتحرر لمصنفه سراج الدين أبى حفص عمر بن زين الدين قاسم بن شمس الدين محمد الأنصارى الشهير بالنشار.

﴿القول فى تواتر القرآن والقراءات﴾

(أما القرآن) فلا خلاف أن كل ما هو من القرآن، متواتر فى أصله وأجزائه، وأما فى محله ووضعه وترتيبه فكذلك عند محقق أهل السنة للقطع بأن العادة تقضى بالتواتر فى تفاصيل مثله؛ لأن هذا المعجز العظيم الذى هو أصل الدين القويم، والصراط المستقيم، مما تتوفر الدواعى على نقل جمله وتفاصيله، فما نقل آحادا ولم يتواتر يقطع بأنه ليس من القرآن، وذهب كثير من الأصوليين إلى أن التواتر شرط فى ثبوت ما هو من القرآن بحسب أصله؛ وليس بشرط فى محله ووضعه وترتيبه «ورد هذا الرأى» ١) بأن الدليل السابق يقتضى التواتر فى الجميع. (٢) لو لم يشترط التواتر فى المحل والوضع لجاز سقوط كثير من القرآن المكرر وثبوت كثير مما ليس بقرآن، ولجاز أن لا يتواتر كثير من المكررات الواقعة فى القرآن مثل «فبأى آلاء ربكما تكذبان»

(٣) لو لم يتواتر بعض القرآن بحسب المحل جاز اثبات ذلك البعض فى الموضع بنقل الآحاد .

وقد بنى المالكية وغيرهم ممن قال بانكار البسملة قولهم على هذا الأصل وهو وجوب التواتر جملة وتفصيلا بحجة أنها لم تتواتر فى أوائل السور وما لم يتواتر فليس بقرآن «وقد أجيب» بمنع كونها لم تتواتر فرب متواتر عند قوم دون آخرين وفى وقت دون وقت ويكفى فى تواترها كتابتها فى المصاحف العثمانية مع اتفاقهم على تجريدها مما ليس قرآنا ويدل لذلك روايات كثيرة اه ملخصاً من الاتقان مع ايضاح ويمكن للمالكية وغيرهم أن يعترفوا بتواترها بين السور وعدم ثبوت تواتر أنها جزء من كل سورة ويحمل ذلك على تكرر نزولها مع كل سورة .

(أما القراءات السبع) :

الجمهور على أن القراءات السبع متواترة جميعها سواء ما كان منها من قبيل الأداء كالمد والامالة أو تخفيف الهمزة أو لا وسواء كان مختلفا فى نقله عن القراء أو متفقا على نقله عنهم .

وذهب ابن الحاجب إلى أن ما كان من قبيل الأداء كالمد والامالة وتخفيف الهمزة لا يشترط فيه التواتر وعبارته فى مختصره مسألة القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء كالمد واللين والامالة وتخفيف الهمزة ونحوه، لنا لو لم تكن متواترة لكان بعض القرآن غير متواتر كملك ومالك ونحوها وتخصيص أحدهما تحكم باطل لاستوائهما،

«ووجه ما قاله» ابن الحاجب من استثناء ما ذكر من التواتر أن ما كان من قبيل الأداء بأن كان هيئة للفظ يتحقق اللفظ بدونها كزيادة على أصل المد والامالة وما بعدها من الأمثلة مقادير الزيادة فيه ولا يضبطه السماع عادة لأنه يقبل الزياده والنقصان وذلك يكون بالاجتهاد وقد شرطوا فى التواتر أن لا يكون فى الاصل عن الاجتهاد وتحقيق كلام ابن الحاجب أنه إن أريد بتواتر ما كان من قبيل الأداء تواتر أصله كاصل المد وأصل الامالة وغيرهما كأن يراد تواتر المد مثلا من غير نظر لمقداره فالحق خلاف ماقاله ابن الحاجب للعلم بتواتر ذلك وإن أريد تواتر الزائد على الأصل فالوجه ما قاله ابن الحاجب وهو الذى يوافق توجيهه وقال أبو شامة الالفاظ التى اختلفت الطرق فى نقلها عن القراء من القراءات السبع ليست متواترة وأما الالفاظ التى اتفقت الطرق على نقلها عنهم من القراءات السبع فمتواترة .

وعبارته فى المرشد الوجيز نقلا عن شرح جمع الجوامع

وما شاع على ألسنة جماعة من متأخرى المقرئين وغيرهم أن القراءات السبع متواترة نقول به فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء السبعة دون ما اختلفت فيه بمعنى أن نفيت نسبته اليهم فى بعض الطرق وذلك موجود فى كتب القراءات لاسيما كتب المغاربة والمشارقة فبينهما تباين فى مواضع كثيرة والحاصل أنا لا نلتزم التواتر فى جميع الالفاظ المختلف فيها بين القراء أى بل منها المتواتر وهو ما اتفقت الطرق على نقله عنهم وغير المتواتر وهو ما اختلفت فيه بالمعنى السابق

وعلى ذلك فيكون كل من ابن الحاجب وأبي شامة قد وافقا الجمهور فى تواتر القراءات السبع وخلافهما لا يضر لأنك قد علمت أن ما كان من قبيل الأداء وإنما الخلاف عند ابن الحاجب فى الزائد على أصل المد والامالة والتخفيف وغيرها وعند أبي شامة فى الألفاظ التى اختلفت الطرق فى نقلها عن القراء وهذا خلاف قليل الأثر لأنه لا يقدح فى تواتر القراءات السبع فى الجملة فلا ينافى أن فيها غير المتواتر وهو قليل وهو الذى ذكره أبو شامة مما اختلفت الطرق فى نقله عن القراء بأن أثبته أحد الرواة ونفاه الآخر كما تقدم وذهب بعضهم إلى أنها ليست متواترة واستند إلى الشبه الآتية

(شبهة القائلين بعدم تواتر القراءة السبع)

أولا قالوا — إن المعلوم بالتواتر هو كون إحدى القراءتين من القرآن وأما هما معا أو إحداهما بعينها فلا كيف والذين تستند اليهم وهم سبعة لا يحصل العلم بقولهم فيما اتفقوا عليه فضلا عما اختلفوا فيه

والجواب عن ذلك بأن قراءة كل واحد من هؤلاء السبعة قد علمت من جهته ومن جهة غيره ممن يبلغ عددهم التواتر وإنما نسب العلماء القراءات المتواترة إلى السبعة لئلا تلتبس على الجاهل بغيرها من الشواذ فاذا قيل إن هذه القراءة فى السبع ؛ كان معناه أنها مروية بطريق التواتر لا بطريق الآحاد ، وأما إضافة القراءة إلى من أضيفت له من أئمة القراءة فالمراد بها أن ذلك الامام اختار القراءة بهذا الوجه على حسب ما قرأ به فآثره على غيره ولزمه حتى اشتهر به وأخذ عنه

فاضيف اليه دون غيره من القراء وهو مع ذلك متواتر .

(ثانياً قالوا) : إن القول بتواتر القراءات السبع يؤدى إلى تكفير من طعن فى شىء منها مع أنه قد وقع الطعن من بعض العلماء فى بعض قراءات ، فقد طعن بعضهم فى قراءة حمزة « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » بخفض الأرحام لأن فى ذلك عطفا على الضمير المجرور من غير إعادة الجار ، وطعن بعضهم فى قراءة أبى عمرو « فتوبوا إلى بارئكم » باسكان الراء لأن فى ذلك حذفا لحركة الأعراب وهو غير جائز وغير ذلك أمثلة أخرى ، فكيف يقال بتواترها مع وجود مثل هذه الطعون من بعض العلماء .

« والجواب عن ذلك » بأن إنكار شىء من القراءات لا يقتضى التكفير على الأطلاق لأن التواتر منه ما علم بالضرورة ومنه ما لم يعلم بالضرورة فالذى يقتضى الكفر إنما هو إنكار المتواتر الذى علم من الدين بالضرورة وأما المتواتر الذى لم يعلم بالضرورة فانكاره لا يقتضى الكفر ولا شك أن بعض القراءات قد تواتر إلا أنه لم يصر تواتره معلوما من الدين بالضرورة لأنها إنما تواترت عند القراء الذين عنوا بأمر القراءات وضبط وجوهها فتواترها ليس كتواتر القرآن من كل وجه

وأما ماوجه من المطاعن فقد أجابوا إلى بعض القراء من المطاعن فى بعض قراءاتهم بأن المدار على دخول القراءة تحت ضابط القراءات السابق ولا يشترط الفشو فى اللغة العربية وبهذا تبين أن هذه الشبهة لا تقدح فى تواتر القراءات السبع

﴿ القول فى القراءات الثلاث المكملة للعشرة ﴾
(وهى قراءات يعقوب وأبى جعفر وخلف)

ذهب ابن السبكى فى منع الموانع الى أن القراءة قسمان فقط متواتر وشاذ وجعل الشاذ هو ما ليس بمتواتر وعد الثلاثة التى تكمل العشرة من المتواتر كالسبعة وعبارته فى منع الموانع مانصه وإنما قلنا فى جمع الجوامع والسبع متواترة ثم قلنا فى الشاذ والصحيح أنه ماوراء العشرة ؛ ولم ينقل والعشر متواترة لأن السبع لم يختلف فى تواترها فذكرنا أولا موضع الأجماع ثم عطفنا عليه موضع الخلاف قال على أن القول بأن القراءات الثلاث غير متواترة فى غاية السقوط ولا يصح القول به عمن يعتبر قوله فى الدين وهى لاتخالف رسم المصحف؛ قال وقد سمعت أبى يشدد النكير على بعض القضاة وقد بلغه أنه منع من القراة بها واستأذنه بعض أصحابنا مرة فى إقراء السبع فقال أذنت لك أن تقرأ العشرة انتهى .

وقد علل عد العشره من الصحيح الجلال المحلى بقوله لأنها لا تخالف رسم السبع من صحة السند واستقامة الوجه والعربية وموافقة خط المصحف الامام اه

وهذا مذهب الأصوليين وأمامذهب الفقهاء فالشاذماوراء السبعة فالثلاثة المذكورة عندهم من الشواذ ومذهب الفقهاء ضعيف بما سبق بيانه من أن ضابط القراءات منطبق عليها .

وهذا الضابط هو الميزان فى قبول القراءة أو ردها سواء كانت

من السبعة أو غيرهم فان قولنا القراءات السبع متواترة معناها في الجملة فلا ينافي أنه يوجد فيها المشهور والمروي بطريق الآحاد المحفوفة بالقرائن المفيدة للعلم ؛ وأما المروي من طريق الآحاد المحضة فهو نذر لا يكاد يوجد ولذلك قال أبو شامة في المرشد الوجيز بعد أن ذكر ضابط القراءة ما نصه «فان الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا على من تنسب اليه فان القراءات المنسوبة إلى كل قارىء من السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءاتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم ، فوق ما ينقل عن غيرهم اه

أقول وهذا الذي تميل اليه النفس ويطمئن إليه القلب

«خاتمة» في كيفية تحمل القرآن

قد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع القرآن من جبريل وان جبريل كان يسمع القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم فقد أخرج البخاري عن فاطمة رضي الله عنها أنها قالت أسر إلى النبي صلى الله عليه أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة وأنه عارضني العام مرتين الحديث فهذا الحديث يدل على المعارضة وهي من الجانبين وذلك بأن يقرأ أحدهما تارة ويسمع الآخر وبالعكس تارة أخرى وأخرج البخاري في حديث عن ابن عباس «أنه قال كان رسول الله صلى عليه وسلم أجود الناس بالخير وأجود ما يكون في شهر رمضان لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض

عليه رسول الله ﷺ القرآن فاذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة » وأخرج عن أبى هريرة أنه كان يعرض على النبى ﷺ القرآن كل عام مرة الحديث فمدارسة القرآن مع جبريل كانت تارة بالسماع وتارة بالقراءة من كل منهما وإن الصحابة قد أخذوا عن رسول الله ﷺ القرآن سماعا لأن فصاحتهم تقتضى قدرتهم على الاداء كما سمعوا وقد ثبت أيضا أن كثيرا من الصحابة قرأ بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل لذلك أحاديث عمر وهشام بن حكيم وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود وغيرهم حين اختلفوا فى القراءة وعلى ذلك فتحمل القرآن عن الشيخ يكون بأحد طريقين أو بكليهما اما بالسماع منه أو القراءة عليه أو كليهما ولا تجوز رواية القرآن ولا قراءته بالمعنى ولا يشترط فى قراءته الحفظ بل هى تكفى ولو من المصحف، (وينبغى) لقارىء القرآن أن يفيه حقه من إعطاء الحروف حقها من المخارج والمد والوقف والوصل مع الخشوع والخشية لله فقد أخرج البخارى «عن قتادة ، قال سألت أنسا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كان يمد مدا إذا قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «أحسن الناس صوتا من إذا قرأ القرآن رأيته يخشى الله » نسأل الله تعالى أن ينفعنا بالقرآن وأن يعاملنا بالعفو والاحسان إنه كريم منان والحمد لله على حسن معونته وجميل نعمته والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وذوى محبته وكان تمام هذا المؤلف فى يوم الخميس

الثانى عشر من شهر ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثلثمائة
وألف على يد مؤلفه وجامعه الذى يرجو من الله تحقيق حميد الآمال
وعظيم الأمانى محمد على سلامة الزرقانى جعله موفقا لخير العلم
وأفضل العمل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرست

﴿كتاب منهج الفرقان﴾

﴿فى علوم القرآن﴾ — القسم الأول

الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
٢	٣	من تبعهم	ومن تبعهم
٣٢	٤	ابن عكرمة	عكرمة
٣٢	١٧	ويستفتولك	يستفتونك
٣٥	٥	لا يخالطوهم	لا يخالطهم
٤٠	١٨	نص مضى في بيان	نص في بيان
٤٨	٨	قرينة صادقة	قرينة صارفة
٥٠	١٢	لزيادة السؤال	لزيادة الجواب
٥٠	١٣	عن الجواب	عن السوآل
٥١	١٢	من المشتركين	من المشركين
٦١	٢٠	وحرج كبير	وحرجا كبيرا
٦٢	٧	صلى الله عليه	صلى الله عليه وسلم
٧١	١٤	لكنها غير مستعملة	لكنها مستعملة
٧٤	٥	ولا يتغير	وبتغير
٧٦	٢٠	وحرام ومتشابه ومحكم	وحرام ومحكم
٧٩	٦	ومن كان له عناية	وممن كان له عناية
٧٩	٨	من كتاب الا	من كتاب الله إلا
٧٩	١٨	أولها	أولها
٨١	١	والأزمنة	والأزمنة

ص	س	خطأ	صواب
١٠٥	٢	ثنى عشرة	اثنتى عشرة
١٠٧	٢	مع غيرى	مع غيره
١٠٧	١٦	نه لا يقبل	أنه لم يقبل
١٠٨	١٨	قال على	قاله على
١٠٨	١٩	من أول	من أن أول
١١٠	٢	توفت	توفيت
١١١	١	فوجدنا	فوجدناها
١١١	١٠	اسلم	أعلم
١١٢	١	عمر	عمرو
١١٢	٦	اجمعت	اجتمعت
١١٣	١٢	وتغييرات	وتفسيرات
١١٤	٦	والعام	العام
١١٤	١٧	رشام	وشام
١١٥	١٠	له حالتين	له حالتان
١١٧	٣	وليذكر	ولنذكر
١٢١	١٦	والنذبه فاعدتان يجب التشبيه لهما	وههنا قاعدتان يجب التنبه لهما
»	٩	تغييرات	تفسيرات

ص	س	الخطـــأ	الصــواب
٨١	٧	وإن السبب	وإن كان السبب
٨٢	٢٠	فإنه مدنية	فانها مدنية
٨٣	١	فبئس القرار	وبئس القرار
٨٣	١٨	ضوابط الملكى	ضوابط الملكى
٨٤	٥	حرف المعجم	حروف المعجم
٨٩	١	ونهج نهجهم	منهج نهجهم
٨٩	١٤	لا يصحوا	لا يصح
٨٩	١٥	لبدائة	لبداءة
٨٩	٢٠	إلى اوتوا	إلى الذين أوتوا
٩٠	٩	وأتفسنا	وأنفسنا
٩٠	١١	صاحب أهل الشبهة	صاحب هذه الشبهة
٩٠	١٣	كانهم	كأنهم
٩١	١١	ان الذين يأكاون	الذين يأكلون الربا
٩١	١٥	من ما تبين	من بعد ما تبين
٩١	١٦	تعلم أن	نعلم
٩٢	١٤	كان بينهما خلاف	كان بينهما الخلاف
٩٨	٣	وأنزل من	وأنزلكم من
١٠٣	١٤	غير أن..	غير أنه

ص	سطر	خطأ	صواب
١٥٠	٩	قبل إنزال	قبل إنزال الكتاب
١٥٤	١٦	كتابه به العزيز	به كتابه العزيز
١٥٦	٧	كلام	كلام الله
١٥٨	٦	على أن أصل	على أصل
«	١٩	بغير السنة	بغير السند
١٦٠	٥	أبو عمرو	أبى عمرو
١٦١	٩	إلا وقت	إلا وفق
«	١٤	ثانيهما	ثانياً
١٦٢	«	ذره	نوره
١٦٤	«	الأفتتان	الأفتنان
١٦٥	٤	نذكر	أن نذكر
«	٦	ولنكشتف	ولنكتف
١٦٦	٩	العدوى	العدوانى
«	١٨	أو ضمة	أو كسرة
١٦٧	٧	كعجمة وأعجمة	كعجمه وأعجمه
١٦٨	١٥	عبد بن مروان	عبد الملك بن مروان
١٧٦	٨	وعيرها	وغيرها
١٧٧	٩	يبلغوا	يتلقوا

ص	سطر	خطأ	صواب
١٢٤	١٩	و بعظم أثره	ويعظم أثره ولا
١٢٤	٩		يذكر فى التاريخ
١٢٥	١٧	فضائل البيت	فضائل أهل البيت
«	١٨	الطبرى	الطبرسى
١٢٦	٦	تعثرون	تفترون
١٢٨	١٢	آخر	أخرى
	١٣	بوضع	يوضع
١٢٩	٥	المثنى	المثنين
	١١	عجردها معجزة	عجردها
١٣٠	١٣	كأن قال	كأنه قال
١٣٢	٣	ولحصل	لحصل
١٣٣	«	أقصر منها	أقصر منها
١٣٩	٢	وهو المجزوم	وهو الجزم
«	٣	كلونه جزم	كأنه جزم
«	٤	فقال هذا	قال هذا
١٤٠	١٠	الموجودات	الوجودات
١٤٤	٩	تتفنا	نفتأ
«	١٢	وموصولة	موصولة

ص	سطر	خطأ	صواب
١٧٧	١٠	ويقظـانا	ويقظان
١٨٠	٦	بقول	لقول
١٨٣	١	بأبهـــامه	بأبهامه
«	١٣	فقصـر	اقتصر
«	١٦	زيان	زبان
«	٢٠	أبو عمـر	أبو عمرو

المنهج

التفسير : أقسامه ، التفسير المأثور ؛ المفسرون من الصحابة ؛ تفسير ابن عباس الرواية عنه واختلاف الآراء فيها ؛ الرواية عن غيره من الصحابة، المفسرون من التابعين ؛ طبقاتهم ، نقد المروى عنهم ، وضع وضعف الرواية فى التفسير بالمأثور وأسباب ذلك ، تدوين التفسير بالمأثور وخصائص الكتب المؤلفة فى ذلك

التفسير بالرأى : الجائز منه وغير الجائز ؛ التعارض بين التفسير بالرأى والتفسير المأثور وما يتبع فى الترجيح بينهما ؛ أهم كتب التفسير بالرأى ومزايا كل كتاب ، تفسير الفرق المختلفة كالتفسير الاشارى وتفاسير أهل الكلام ، التعريف بأشهر الكتب فى ذلك ، مزج العلوم الأدبية والكونية وغيرها بالتفسير وسبب ذلك وأثره

ترجمة : القرآن وحكمها تفصيلا

النسخ : وقوعه ، تفسير الآيات المقول بنسخها عند من لا يرى وقوع النسخ فى القرآن .

المتشابه : من القرآن وبيان آراء العلماء فيه

أسلوب القرآن : أعجاز القرآن ، وجه إعجازه القدر المعجز منه

قصص القرآن ، أمثال القرآن ؛ جدل القرآن .

(تدرس الآية الخاصة بهذه الموضوعات فى القرآن كله دراسة تفصيلية)